(2)

خواطر جميلة

كيف تتحقق المعجزات؟

جميلة الكجك

الإهـــداء..

إلى من استلذوا بِعُمري قطعة إثرَ قطعة، وأنا أناظرُ فِعلُهم سعيدة بِهم، فهم ذاتُهم قطع وجداني التي انفصلت عني وغادرتني إلى عَوالمهم.
أدعو الله أن يُسعدهم ويهديهم ويهدي بهم، ويوفق خُطاهم إلى ذُرى المجدِ والخير..

مع امتناني العظيم لابني أحمد طقاطقه

جميلة الكجك

تقديـــم

نَتَحدثُ مع قَلبِها فَيَسْمَعُها الناس. . .
جَميلة الكجك
نُتاج فِكري عاطِفي دافئ في قالبِ الزمن الجميل بتوقيت الآن.
إبراهيم طوالبة

*****

قصة معجزة

هي قصة- المعجزة- معجزة الخيزران الصيني ومعجزة كل عمل عظيم يحتاج إلى صبر طويل وعمل دؤوب وأمل لا نتقطع خيوطه مهما امتد الزمن. أو تلاشى الحلم خلف غيوم الإحباط والمحبطون.

هي قصة زراعة الأمل واستنباته في النفوس أياً كانت والحصادُ الذي يَخلِقُ في القلوبِ فرحاً لا يُقدر بملء الكون ذهباً وماساً وجواهر. قصة شاهدتها على أرض الواقع ولكن من خلال فيلم وثائقي.

يسمع أحد المزارعين بقصة زراعة الخيزران ومدى الربح العظيم الذي سيتحقق، يحدوه الأمل، يحرثُ الأرض، يهيؤها، حقلاً كاملاً يبذرُ البذور الصغيرة في الحُفر لتبدأ بعد ذلكَ رحلته الطويلة والشاقة ما بين منزله وذاك الحقل..

.. يذهب يومياً إلى أرض -أحلامه- المدفونة تحت التراب، يرويها، يتخيل كيف ستكون، يضع أمنياته وينتظر، ويعاود الانتظار، أياماً، أسابيع، شهورا، سنوات. إلا أن الأرض أمامه لا زالت جرداء كما كانت عندما حرثها. كاد يحبط من عدم رؤية أية نتائج.

بات يحدق بيأس مكان البذور.مرت سنوات.أخذت علامات الاستفهام تجول بخاطره. تجتاح دماغه، أحسَ بقسوةِ الواقع المرير الذي يتلمسه، أمانيه، أحلامه ما الذي حدث لها! ولكن هل يستبد به اليأس بعد كل هذا ؟! وضع كل تساؤلاته ومدعاة القنوط جانباً ، تحول الذهاب إلى الحقل ورعاية الأمل الصامت كل صباح عادة، روتينا يوميا تمكن منه...

.. بعد خمسة أعوام، ذهب الفلاح ككل يوم إلى الحقل الذي كان بالأمس أرضاً جرداء، وإذا بالبراعم تنتظر قدومه لتشرق من باطن عتمة الأرض، لتكافئ صبره واجتهاده وإصراره على الانتظار.

رقص من الفرح وأخذ يصرخ: ها هي تظهر، تعالوا وانظروا، تجمع أفراد أسرته والناس من حوله، رأوا بأعينهم تلك البراعم تشق التربة، تنهض، كعملاق من فانوسه السحري، تتطاول بسرعة رهيبة. كل يوم ترتفع عن مستوى الأرض متراً كاملاً، وبعد أسابيع قليلة لا تزيد على الستة، يصل طولها إلى ما يقارب ثلاثين متراً..

.. ولكن أتدرون لماذا انتظرت هذه النبتة خمسةَ أعوامٍ حتى تبزغ كشمسِ الفجرِ في يوم صيفي لا غيم فيه ؟! إن بذرة الخيزران بمجرد ارتوائها بالماء، تبدأ جذورها بالنمو أفقياً وعامودياً في عمق الأرض تبني أساساتها كما يبني المهندس المتمكن أساسات أبراجه التي تطاول عنان الفضاء.

منذ أن شاهدت ذاك الفيلم وأنا أفكر بكل كلمة أو حدث أو منظر ورد فيه، فكان حافزاً لي لأربي الأمل بالعمل، لأمضي قدماً فيما أردت أن أبلغه رغم تقدمي بالعمر، فأنا لم أتوانَ يوماً عن فعل كل ما أستطيع. حتى كان شروق شعاع من

الأفق اخترق وجداني فظهر من بين جنبي «قوس قزح» فكانت هذه الخواطر.

* * *

وهل هناك أجمل من هكذا حب؟

حُبها يعيد لك ذاكرتك أيها المهاجر- الى ما وراء البحار- يشحنها من جديد، يعيد لك هويتك العربية، التي كدت تنساها وتنسى تلك الجُذور التي تَربُطك بتلك البقعة المباركة وذاك التاريخ التليد.

أراكما تمتزجان كما شجرة تفاح أو كرمة عنب، قلمت سيقانها وركبت من جديد من شجرة أخرى لتكون أجمل وأفضل وأكثر روعة وأقدر على إنتاج الثمر الشهي اللذيذ.

الحب صديقي إن لم يكن بمثلِ هذا التَمازُج فماذا يكون؟!

كم هو متميز ذاك الحمل الخفيف الثقيل، ذا النكهة المتميزة المؤلمة الذي تحمِلهُ في صدرك ولا تريد أن تتخفف منه.

***

الحُب قيمة

الحب يا سادة قيمة، مبدأ، أساس أقيم عليه توازن الكون، ولكن تصوركم أنتم له شوه جمالياته. لولا الحب الذي أنجبكَ وأنجبه وأنجبنا جميعاً ما كُنتَ إنساناً.

البهيمة تَعرف ما تَعرفونهُ أنتم ولكنها لا تعرف الحب. إن يكن له يوم، أن تكون له كل الأيام لن يزيد أو يقلل من قيمته، ولكنه يثرينا نحن. مشاغل الحياة قد تُبحِر بنا إلى خضمها فلا أقل من يوم تعيشه الإنسانية برومانسية الحب.

الحب الذي في أذهانكم ليسَ هو الحُب الذي أدعو إليه. الحُب عندي جمال العلاقة بيني وبين كل شخص وكل شيء. الحُب علاقة صافية نقية وأنتم من قَلّل قيمتها.. لماذا تتصورون دوماً أن الحب هو تلك العلاقة النجسة التي تكون بين بهيمتينِ من البشر؟! لماذا تُحاوِلون التنقيبَ عن سواد القُلوب فيما أكتب، فقلبي وصفائِحي خالية مما تتوهمون؟

* * *

قُل لي: أحبك

نعمة لا يقدرها الكثيرون منا، سَقفٌ يأويه وأسرة تقدم له كافة احتياجاته، وأب يحميه، وأمان يتمتعُ به وفيه، وحب قد لا يظهر إلا عند الحاجة إليه.

فلما نُواري كل مشاعرنا الجميلة، لما لا ننطق بكلمة أحُبك لبعضنا البعض، لما نستكثر الكلمات التي تسري إلى الدماء تدفئها، وإلى القلوبِ تزيدُ من نبضها فتتدفق فينا الحيوية والحياة، تُزّينُ وجوهنا وتُشرِق أفواهنا بالبَسمةِ والكلمات الجميلة فنزداد سعادة.

كَلِمةٌ واحدة تحول وهم العداوة إلى حقيقة المحبة، وصحاري المشاعر إلى بساتين الورد والتنافس والتنابز إلى العَونِ والمساعدة. والتَجهُم والعُبوسِ إلى وَجهٍ طَلَقِ المحيا..

إنها كلمة أُحِبَك، فلما لا نَقُلها وَبكلِ بساطة.. لما يَصعُب علينا التلفظِ بها وهي من أجمل الكلماتِ وأرَقِها وأكثرها شاعرية وأسهَلُها نطقاً.

***

انتهت الحكاية!

فارس الأحلام غادر، قد يكون سافر، قد يكون هاجرَ ولكنني لن أقول مات.

لست أدري، كل ما أدريه أنه لفه الغياب كما تَلفُ الأُمَ وليدها في حُضورِ البردِ في حُضورِ الخوفِ عليه في حُضورِ الموت.

كل ما أعلمُ انه وراءَ الغيم تاه. في سوادِ ليلٍ مُظلم ذا عتمة كالكحل غاب. عُميّت عيناي في غيوم شَكٍ مُثقل حتى ذابَ قلبي وانسكبَ مِنهُ دمي سائلاً قان من الشريان للوريد خارج قارورته، خارجِ الكأس، خارجِ الغلاف.

ماتَ الكثيرون، فارقني خلانٌ الوَفا، تُركتُ وحيدة للغربة، للفراغ، للسكون فحملت قيتارتي والكتاب.

لم أجزعُ إلا حيناً من الأحيان حتى انتفض فيّ الماردُ الجبار وعاد. حتى جاءني الخَبرُ الأكيد أن فارسُ الأحلامِ مضى ولم يترك عِنوانهُ ولا أثر الخطى خلفه، ولا خبراً عند جارتي ولا مفتاحُ البيت تحت سجادتي. عندها هوى الفؤادُ فارغاً إلا من رسمه. ومن شدة الحُزنِ عليه سقط الرسمُ مني وانكسر وتناثر. كما ينكسر الزجاج.

قد أفقد الدنيا من حولي، قد يغبب القمر، وقد لاتشرق الشمس ولا يأتي الربيعُ أو الخريف. قد يَموتُ فصلِ الشتاءِ ولا يعودُ الصيف المنتظر.

لا يَهُمني سأبقى أنا كما أنا. لكن غيابه عني هدّني،

أصابني في مَقتلي.
سأعيشُ بعده. أجل هي سنة الله في خَلقهِ، لكنني أكونُ عندها جِذعُ شجرة بلا أغصان، بلا أوراق بلا ثمر، وقد يجف الجِذعُ يوماً فقد غاب المطر.
كم سأعيش بعده سنة، أشهراً، أياماً. يا لقلبي الضعيفُ فلا بِالصَبرِ تحلى ولا هو قادراً على السفر. لا أستطيعُ العيشَ في الصحراءِ بعد الرياضِ والبساتين وألوانِ الزهر.
سلامٌ عليكَ حُبي، سلامٌ عليكَ قلبي، فَبعدَ اليومِ لا سلامٌ أنتظر. ليسَ مَنْ حقي نقاش فَهل يُناقِش مَلِكُ الموتِ إن حضر.

***

يَتَسلى بها

يتسلى بعذاباتها وكأنما هي قطعة من الشواءِ فوقَ الفحم يريدها أن تنضج لتكون له هنيئاً مريئاً.
يتسلى بها كأنما هي الأرجوحة يعلو بها ويهبط متلذذاً منتشياً بالدوران والدوخة وهي ما هي إلا ركوبه.
يراها في عينه قطته المواءة، كلما حرمها الطعام به تشبثت.
إلا أن هذه العبيطة المجنونة الغبية قد صحت من زمن ولكن قلبها أعماه الغرام وأخمد فيها جذوة العقل. فإذا ببعض كلماته تصبح يداً تدفعها لتسقط من قمة العشق والحنين إلى بحر الصحو وأمواجه لتصحو من غفلتها وتحملها الأمواج إلى الشط. حيثُ الشمسُ مُشرقة وحيث يداها تلامسُ الأرض.
أتدري كيفَ شُفيت؟ أتدري أنها تخافُ أن تكون لست أنت. تخاف أن يكون هذا اللاعب إن لم تكنه هو خاسر مهما فعل. لما تركتها للمتاهات إلا أن تكون ذئباً، وحشاً، ولست من بني البشر! عرفت أضعف جوانبها فأتيتها من شكها الملعون من فضولها. من رغبة بالكشف عن كل لغز. وجعلتها لعبة الشطرنج.
ولكن أتدري أنه مهما فعلت لن تراك غريباً ولن تكرهك؟ وأنك أنت ذاتها ومهما هذه الذات قد أخطأت، ولكن رفقاً بها فقد أوجعتها فوق الوجع.
لما لا تواسي قلبها المجروح، لما أنت عليها فوق الجرح والقهر والزمن. أحبتك لتكن اليد الحنون تهدهد جرحها،

أحبتك لتكون الصدر الرءوم بها. فإذا أنت أكبر هَمِها وأعظم أسباب حزنها.

***

لو أننا... أنا وأنت

لو أننا نصحح أوراق امتحاناتنا لكنت أنا ناجحة، متفوقة بامتياز مع مرتبة الشرف.
لست أنا من أمنحها لنفسي ولكن ربي وديني ورسوله وسائر القيم الإنسانية العليا السامية تطبع على جبيني هذا التفوق والتميز. ويعتلي تاجُ الأخلاق هامتي. ولا يهمني ما دمت أعرف نفسي وقدرها ما يمكن أن تقول أو يقول الناس كلهم.
وأنتَ. أنت ما هو تقديرك، لن أقيمك ولكني أترك لك التقيم فأنت أدرى بنفسك. ولكن كم أتمنى أن تعلمني بتقييمك. ولكنني أعلم حق العلم أنني لولاك ما كنت شيئاً يذكر.
لولاك ما خط قلمي عبارة في الحبِ، في الوجدِ، في الحنين. لولاك ما تحركت المشاعر. لولاك ماكتبت الحزن ألماً، لولاك ما نطقت حروفي. هكذا علمني أستاذي أن أشكر من يُحسِن إلي.

***

حكاية...

قد تَضّطرُ إلى قراءتها كل حين

وهكذا انتهت الحكاية (أقله من ناحيتي) ولم يبق إلا لملمتها في رواية.
أرجو أن تكون قد انتهت على خير بالنسبة لجميع الأطراف. ويعود كل طرف لإكمال مسيرة حياته كما يشاء أو بالأحرى كما يشاء الله له. (وفي هذه المشيئة حديث طويل ذو أشجان).
هو أراد أن تبدو القصة كلها لبطل واحد وشخصية واحدة وظلال كثيرة لا نهائية.
أعلم عزيزي أنك جل معجبي إن لم تكن كلهم. وأن رولة الأرقام ستتوقف.....وأن وأن. ولكن هل ظلالك ستبقى تحوم حولي أم أنها هي الأخرى ستكف عن الدوران؟!
أنا كُنتُ قانعة بحياتي وإن لم تكن مثيرة. أقله استقرار وأمان وَدِعة. سأبقى أنا كما أنا صبية ولن أشيخ.
سأبقى أحلق في الأعالي ولن أعودَ إلى الثرى. سأبني عشي في السما ويكون عرشي. أعلم بأنك تستقوي علي فأنت من بيدك أوراق اللعبة كلها. وأنني قد أقف يوماً على مقصلتي ولكنني أقدر من يتحمل مسؤوليتي.
أعلم بأنها مغامرة لم تحسب بقوانين الحساب والمنطق.

أعلم بأنني قد خضتها بكامل رغبتي. وأنك قد سلبتني إرادتي. وأنك كإخوة يوسف في الجب قد أوقعتني. هو جاء من أنقذه أما أنا فمن سيأتيني. روحي معك وأنت أنت ناري وجنتي. افعل ما شِئتَ فمنذ أول يوم سلمتك إرادتي.

***

من رواية
قواعدُ العِشق الأربعون
«إليف شافاق»

الفكر والحب من مواد مختلفة. فالفكر يربط البشر في عقد، لكن الحب يذيب جميع العقد.
إن الفكر حذر على الدوام وهو يقول ناصحاً: «احذر الكثير من النشوة» بينما الحب يقول: «لا تكترث! أقدم على هذه المجازفة». وفي حين أن الفكر لا يمكن أن يتلاشى بسهولة، فإن الحب يتهدم بسهولة ويصبح ركاماً من تلقاء نفسه. لكن الكنوز تتوارى بين الأنقاض. والقلب الكسير يخبئ كنوزاً».
كانت تلك قاعدة. وهذه، أخرى: تتبع معظم مشاكل العالم من أخطاء لغوية ومن سوء فهم بسيط. لا تأخذ الكلمات بمعناها الظاهري مطلقاً.
وعندما تلج دائرة الحب، تكون اللغة التي نعرفها قد عفا عليها الزمن، فالشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بكلمات، لا يمكن إدراكه إلا بالصمت.
هنا أدركت تماماً أن الحكمة غير العلم وأن كثيراً من العلماء غير حكماء. أدركت أن العقل الواعي ليس كل شيء، ففي الذات أبعاد أخرى. أدركت أن إيماني لم يكن عقلاً محضاً بل هو أبعد من ذلك. أدركت أن

الحب هو أساس الحياة، أساس الكون، أساس الوجود وقد عشته وكابرت.

أدركت أن الإنسان هو قمة تجلي الله في كونه، ذروة سنام المجد. لكنه بدون هدي ربه لا يساوي شيئاً. فمن لدن الله ميزان ومعيار ومكيال لا يكال إلا به. وعلى أسس بناء الكون والخلق يبني الإنسان أُسس وجوده.

ومن ضياء أول شعاع للفجر أيقنت أني أسير على هدى الرحمن وإن لم أكن أعلم. فشكراً لمن أحببت وشكراً لمن أحبني. وأراني حقيقتي في تمام إشراق الأنوار وقدسه. فلم أكن لأُخزى أو أُعاب ولا على ما أُتيت أندم.

***

كُلُ ذلِكَ أنتَ

وهل آسى على فقدان غيره وإن كان جانباً من جوانبه على الأوراق قد ارتسم، وقد علمني بفعلته أن الإنسان ألف ذات وذات.
علمني أن جوانبنا لها أخوات. أن الإنسان جن، شيطان مريد، ملاك سماوي المقاصد، إبليس في كل أثوابه، نار ونور، جهنم الدنيا وجنات نعيمها، وفردوسها المبتغى. جمالات قدسية تتنزل من الرحمن تمتزج بنار السموم. علمني، أراني ما لم أكن أعلم أو أرى.
قد كنت أعلم كل ذلك جملة، بقراءة كتاب أو رواية، لكنني لم أختبر حتى حاصرني بشخصيات هو أوجد كنهها من روحه وجنباتها. لو قمت أعد كم هي ما استطعت عدها. لو حاولت التذكر ما تمكنت.
لو حاولت درسها فهل يمكنني فهمها أو استيعابها؟! هو درس في الحياة ولكن هل كان لزاماً علي استحضاره . درس من شدة صعوبته يصعب حله. مفترى ولكن ما أمكن رده. رحماك ربي فهل أجتاز امتحان فُرض عليّ وما اخترته. هو نقمة من الجبار أم نعمة تجتبى.

***

أقول لكم: إبراهيم طوالبة

تعرفت إلى الشاعر «إبراهيم طوالبه» منذ بداية كتابته على صفحته.

أقرأ له، أعلق، أعيد القراءة عدة مرات حتى باتت صفحته محطة يومية ألجأ اليها كحديقة مزهرة للراحة والاستمتاع والتنزه، فخواطره وقصائده جزلة المعاني سلسة التركيب فخمة البناء عميقة الغور، حتى كتب قصيدته أحن إليك فكانت لي مع هذه القصيدة وقفات وكتبت فيها أكثر من تعليق لشدة إعجابي بها.

كان من الممكن أن أجمعها هنا في تعليق واحد ولكنني ارتأيت أن أدعها كما هي. حصدت تعليقاتي مئات الإعجابات من القراء لهذه القصيدة التي أغرمت بها مما دفعني للاستئذان من الشاعر أن أضمها إلى خواطري وقد تفضل علي بالقبول فشكرا له.

التعليق الأول:

رائع فوق التصور

إلى من نتحدث أيها الشاعر فائق الحساسية؟!

قصيدتك هذه حيرتني، وقفت أمامها مشدوهة، أفكر في معانيها. أين غابت عنك بوصلتك البشرية هذه، كيف هان عليها أن نتركك؟! أراك، تقول الحقيقة، ففصولنا قد اختلطت علينا وتاهت النفوس، ما عاد الربيع أخضر، ما عاد ينبت الألوان، ما عاد جميلا كما كان! أصبح ربيعنا ينبت شقائق النعمان ولكن برؤوس بشرية، وسالت الدماء، غذت التربة العطشى وأنبتت قلوبا ذبيحة. والصيف اشتد قيظه، والخريف أصبح أكثر قدرة على التعرية. وأما الشتاء فلا تسأل عنه، زمهريره وصل إلى أعماق خلايا القلوب فأصبحت باردة. لا تنتظر من أحدهم شيئا فقد ماتت

النخوة ووئدت المروءة. اسْعَ واجتهد وحدك ستصل يوما إلى بوصلتك، سيزول الضباب وتشرق الشمس ويعود الربيع كما كان لتزهر البراعم وردا.

التعليق الثاني:

«قلت لي» إبراهيم «وقولك حق: هذه القصيدة مثل لوحة «الموناليزا» من أي زاوية تنظر إليها تجدها تنظر إليك. ليس المهم لمن كتبتها، المهم أنها لامرأة «مطلقة» «etulosba» وهذا تعبير رياضي، والقيمة المطلقة هي زخم القيمة وحجمها بدون تحديد اتجاهها أو موقعها أيا كانت صفتها، حبيبة، عشيقة، صديقة، أم، أخت . .

أنت «إبراهيم» استحضرتها كلمات، استحضرتها قصيدة، ولكنك لم تخبرني كيف نستحضرها حقيقة. إنها المثال الذي نبحث عنه كلينا. إنها الجمال، الحب المطلق الذي لن يخطو على أرض فيها النواقص من البشر .

أراك وكأنك تخبرنا، تصور حقيقتنا جميعا، ففصولنا قد اختلطت علينا وتاهت النفوس، ما عاد الربيع «ياإبراهيم» أخضر، ما عاد ينبت الألوان، ما عاد جميلا كما كان! ها هو ربيعنا نار ودخان، أصبح ينبت بدل الزهر الأحمر شقائق النعمان ولكن برؤوس بشرية، تسيل منها الدماء لتروي التربة العطشى. والصيف اشتد قيظه والخريف أصبح أكثر قدرة على التعرية، أما الشتاء فلا تسأل عنه، زمهريره وصل إلى أعماق خلايا القلوب فتجلدت واسودت وتحجرت، لا تنتظر من أحدهم شيئا فقد ماتت النخوة ووئدت المروءة. اجتهد واسع وحدك ستصل يوما إلى بوصلتك، سيزول الضباب وينقشع وتشرق شمس الحياة ويعود الربيع يزهر براعما ووردا ويظهر قوس قزح.

التعليق الثالث:

أتدري لماذا هذا التعليق «إبراهيم»،

لأنني قرأت قصيدتك هذه أكثر من مئة مرة، لأنني بهرت بها، لأنك تبحث من خلالها عن مثال يتمنى كل منا أن يرى تجسيدا له، كلنا، أنت في هذه الحالة، في هذا الوضع. كلنا يبحث عن تلك البوصلة البشرية، نحن جميعا نؤمن بالحب ولا نكفره لكن الكثيرين كفروا بالصورة البشرية له. يتوق الإنسان يمزقه الحنين إلى حب عمره، إلى صدر يحتويه، ينغمس فيه، يذوب كما تذوب الغيوم في حبات المطر، وحبات البرد في الماء، وكما يتغلغل الماء في التربة فتتشربه. لتنبت الخير أزهارا وأشجارا وبساتين.

لقد سكنت هذه القصيدة وجداني، أحببتها، استلذذتها، أحيت في حيوية الحياة. ولن أبخل عليها حتى المئة تعليق طالما تتوارد الأفكار تباعا إلى ذهني. تلك البوصلة البشرية التي تبحث عنها ستظهر لك يوما ما، ستصادفها وإن لم ولن تكن كذلك المثال الذي تتمناه.

أتدري لماذا لن أبخل»إبراهيم» على هذه القصيدة بالمئة تعليق، لأنني أنا وأنت وكل إنسان أيا كان يعشق مثاله، يتماهى فيه إذ يرسمه، يتخيله يضفي عليه من جماليات ذاته هو، يلونه بألوان قوس قزح، يجعل الشمس والقمر وكل النجوم تبزغ من سمائه ثم يحث الخطى في البحث عنه، ينقب عنه في وجوه الناس، يغازلها من خلالهم ويتوه في تفصيلاتها بينهم فكل منهم يحمل في ذاته بعضا منها، وهو لا يرتضي إلا بها كلها، تأخذه أحلامه بعيدا بعيدا، وهو في الحقيقة لا يحب إلا ذاته من خلالهم.

وهذه الخاصية في الإنسان إن رآها الآخرون نرجسية أراها أنا منتهى الأصالة والإنسانية، فالإنسان ذا جوهر فريد يبحث عن خالص إنسانيته هو في ذات من يحب ليعشق ذاته هو بعشق من يحب. يحب لأجل أن يحيا الحياة وتحيا في أعماقه هو الحياة بكل ماهيتها، بكل طاقاتها، والحبيب إن هو إلا بقية الذات التي انفصلت عنه، وكل ما يريده إذ ذاك هو الالتحام بها والتماهي

فيها ليكتملا. ويزهر ربيعهما ويستبينان سبيلهما وتشرق شمس الحياة فيسيران على هداها، ينعمان بالدفء والسعادة. وهذا منتهى الهدى.

أحِنُ إليكَ ...

لإبراهيم طوالبة

أحِنُّ إليكِ..
كُلَّمَا مشيتُ في الضَبابْ
لِتُرشدي إحساسي
وتُخبريني عن مكان الربيعْ
في هذا الاختلاط الفظّ الفَظيعْ..
بينَ الفُصولْ
تَعَذّرَ عَلَيَّ لِعينيكِ الوُصولْ
ولا أحدٌ بَعدَكِ يَقُولُ الحقيقةْ
لا أحدٌ يَمنَحُني من وقتهِ..
ولو دقيقةْ
لأسألَ عنكِ
كأنّهم يرَوْنكِ في عُيوني
كُلَّمَا سألت ُعنكِ..
غادروا جَميعاً.. وتركوني
في بَردِ هذا المكانْ
وكُلُّ مَكانٍ أنتِ لَستِ فِيهِ.. بَرْدْ
وكلُّ أرضٍ لَم تُقَبّل قَدَميْكِ..
لا يَعِيشُ فِيهِا وَردْ

ويَعلو شوقي لَكِ فوق السحاب
حيثُ أمشي دُونَكِ..
يَلُفُّني مرّةً أُخرى الضَبابْ
لأحِنَّ إليكِ..
كُلّما مَشيْتُ فيه
***

مفارقة شنيعة

أضخم وأسوأ مفارقة هي تلك التي تضيع معها ملامحك كإنسان.

أن تعيش في مجتمع يعترف بك إنساناً يتمتع بكافة حقوقه الإنسانية، كاملة تامة غير منقوصة، وفي الوقت ذاته أنت مضطر بحكم مواطنتك أن تمارس العيش بين بني جلدتك لتكون بنصف عقل وبنصف دين، وينظر إليك على إنك نصف إنسان، هذا إذا اعترفوا أصلاً بأنك إنسان ولست شيئاً يمتلكه أحدهم.

إنها بالفعل أعمق وأشد معاناة يمكن لإنسان مواجهتها في العالم أن تكون امرأة. أن لا ينظر إليك إلا على

أنك وعاء، ولا أقول مصنع فالمصنع كلمة أرقى بكثير من تلك التي يمكن أن تطلق على المرأة..
هذه امرأة متعلمة تمارس كافة حقوقها خارج وطنها فإذا ما عادت إليه تحولت إلى مجرد تابع لرجل ما، حتى وإن كان تحت سن الرشد فهوَ في شرعهم رجل كامل الرجولة. وهي مجرد أمّةً له.

***

لكَ سيدي تحيتي، ولكن..

لفتتني عبارتك «قبلك كانت نساء»، وما جاء بعدها من جمل أثارت في نفسي عواصف لم تهدأ. لا تغضب فأنت كغيرك من الرجال، يحق لكم بالشرع أربعاً، وتحللون فوق الأربعة آلآفاً- دون قيد أو شرط.
لا أدري هل هذه العبارات سترضي غرور حبيبتك أم ستهتز أركان ذاتها كما هزتني تلك الكلمات.
لما تتصورون أن المرأة بضاعة، شيئ، عليها أن تبقى بكراً في كل شيء حتى حبها. أن لا تكون كياناً مكتملا. أن لا تحب إلا أنت من قبل ومن بعد. تقطع علاقتها بالكون، أن تكون كالسلعة المدفوعة الثمن.

قد تكون كالشمعدان وظيفة وزينة، أو كالمزهرية، أو ربما كالعقد اللؤلؤي، لكن عنادي الأنثوي يأبى إلا أن تكون كما أنا أنت.

***

أيُها الرَجلُ المغامر

انتهى عصر الجواري وانتهى عصر الإماء، وفضت بيوت الحريم وما عدنا قوارير إن كسرت سالت دماء. مات هارون الرشيد وانتهى عصر سليمان.
ما عادت المرأة سلعة ولا درة تحفظ في صناديق الرجال.
يكفي استهزاء بنا، يكفي لعبا على الحبال. اظلموا وافعلوا ما تشاؤون باسم أديان السماء. نحن نحتاج إيمانكم فينا لا حباً كالرياء. لولا هذا الذي تسمونه حباً ما كان لكم علينا من سلطان. قبلنا برضانا وغاليتم في الدلال.

لا تريد المرأة إلا حضنا وان خشنا، عليها رحيماً وساعدين مهما اشتّدا لها وسادتين من حرير. وتريد قلباً يستشعر شوقاً وفؤاداً لا يرى لها نِداً وذهناً تسكنه كما تسكن البيت، لا تريد سجاناً وسجناً، لا تريدُ أصفاداً وإن كانت من زهور الياسمين. ولا حواجز شائكة كالتي تحمي الخراف. إن لم تكن كَمُحمدٍ أو أقل قليلاً فاذهب في طريق الغرباء.

***

التحليق عالياً

(رسالة إلى صديق)

كان من الواجب أن تكون صريحاً منذ البداية وأن تعلمني بكل ما يجول بخاطرك، نحن لسنا مجرد كاتب وقارئ، نحن أصدقاء، وأنا وإن كنت أعتبر نفسي عقلانية، بل ربما الأصح واقعية إلا أنني لا ولن أضحي بأي من أبعادي، ولا أكتب إلا ما أعتقد وأومن أنه يعبر عني وبكل صدق.

أنت تعلم أنني لست بحاجة للتسكع عبر الصفحات، إلا أن كتاباتك شدتني منذ بداياتها، وكنت قد ترددت كثيراً قبل أن أجعل صفحتك بيتاً من البيوت التي أزورها بالرغم من أن لي صفحتي الخاصة بي وقرائي الذين

أعتزُ بتواجدهم؛ قبلتُ أن يكونَ قلمي لك بالظل، أن يكون درجة ثانية بعد قلمك، فقط لأنني أحببتُ كتاباتك وأحسستُ أنها تُلامس مشاعري وتعزف على أوتارٍ حساسة في نفسي.
كن أنتَ موضوعياً وتقبل انتقاداتي الموضوعية؛ وفي الوقت ذاته أخبرني بما يزعجك أولاً بأول كما أفعل أنا، وسوف أتقبلُ منكَ ذلكَ أو أبرهن لكَ صِحَة موقفي.
..أنا أُحِبُ التحليق عالياً فوق الغيوم وأبعد ولا أحب أن أكون هناك وحدي رغم أنني قادرة على ذلك. أُحِبُ أن أكونَ ضِمنَ سِربٍ من الصقورِ والنسورِ والعقبان وأعتقد أنك واحداً منهم. وأظنُ أن من أهَمِ صفاتِهم أنهم لا يَخشون الاختلاف ولا يرون فيه ضعفاً بل ثراءًا وإثراءا وتنوعا جِدُ مفيد.
أعلم أن التحليق عالياً، وعالياً جداً صعباً على النفوس الصغيرة وهو أصعب على العقول الفارغة. أنا مسلمة ومؤمنة ورغم ذلك جل أصدقائي من اللادينيين، من الملحدين، ولا أخشى الأقاويل ولا أخاف الآراء المخالفة ولا تلك التي تقف على الحدود المقابلة لآرائي، ولا أهابُ التواجد بينهم أو مناقشتهم والرد عليهم. نحن في النهاية، جميعاً، بشرٌ نحملُ قلوباً ونفوساً وذوات مهما اختلفت، كنهها العميق واحد.
معاناتنا وأشواقنا واحدة، وشغفنا بالحياة واحد، وكل ما نراه من اختلاف ومن تناحُر حول هذا الاختلاف إنما هو تناحُرٌ حولَ سَراب، وأن حقيقة هذا الاختلاف إنما

هو مجرد طبقات من الدهان، من الأصباغ، ألوان طلتنا بها فراشي المجتمعات. لونت بها ملامحنا فبدا الاختلاف كأنما هو حقيقي...
ولو شققت عن الصدور لوجدت كائنا واحداً هو الإنسان بكل ضعفه وقوته، ببساطته وتعقيداته وتناقضاته التي لا تنتهي. لو تمكنت من تقشيره لوجدتَ اللُّبَ ذاتهِ ولكن للأسف تراكمت الطبقات الجيرية فوقَ بعضِها البعض حتى جعلت الواحد منا كالمومياء.
أنا لا أتفلسف وإن كانت الفلسفة تخصصي. لا أتفلسف بالمعنى العامي للفلسفة ولكنني أبوح بمكنونات ذاتي ليس إلا. أنا ولا فخر، تربيت على يديّ رجلٍ حُر، يعرف قيمة الحرية ويفهم كنهها.
تربيت في بيئة حرة بكل معنى الحرية الإيجابي. أبي هو من رسم لي حدودَ هذه الحرية، أجل، ولكنه جعل سقفها السماء وحدودها الفضاء الممتد كله. لم يحاسبني يوماً إلا بحق ومن أجل حق.
علمني كل ما أحتاج إليه من طرق التعامل مع الصغير والكبير، العالم والجاهل... أخذَ بيدي إلى دنيا الرجال العقلاء وعوالمهم ووثق بي، وسلمني مفتاح الثقة وغادر.
أبي لم يكن عالماً ولا شيخاً ولا... ولكنه كان رجلاً حقيقياً، كان إنساناً، كان حراً، كان لي الصديق والرفيق طوال فترة طفولتي وصباي وبدايات الشباب حتى غادرت إلى بيت زوجي..
حينها لم يكن من سبل للتواصل إلا الرسائل أو الهواتف

الثابتة. كم تمنيت لو أني لم أغادره، كم تمنيت لو توفرت سبل التواصل الحالية السهلة الميسرة.
وكم أتمنى الآن أن نحلق جميعا فوق كل الخلافات، أن نتخلص منها حتى نتمكن فعلاً من التحليق عالياً فوق الغيوم ونرى ما لم نره بعد ونصنع مستقبلاً فوق القمم لا في الحفر والمستنقعات. أتمنى أن نحافظ على صداقاتنا رغم كل شيء... فبالوفاق نبني وبالخلاف لابد نهدم البناء.

***

عالم آخر يوازي واقعنا

في داخل كل منا عالم ثان، دنيا أخرى يعيشها الفرد وحده، يعانيها سعادة أو شقاء وقد تكون مزيجا منهما.
هي حياة بكل ما في الكلمة من معنى، وجود آخر يوازي الوجود المادي والحياة الواقعية التي نشاركها الآخرين. نلتقي بها في حواسنا، في خيالاتنا والمشاعر والصور التي نبدع في رسمها.
موسيقى داخلية ذات أنغام تصدح في وعينا الباطن- نعم- ذاك الوعي المعتقل في أعمق أعماقنا، ليصبح باطننا كما البحر بكل خيراته يحتاج إلى غواص ماهر ليستخرج لآلئه وكنوزه المدفونة، وتلك التي قد تركتها سفن الحياة والناس خلفهم أو أودعونا إياها..
هي فعلا حياة توازي حياة، نعيشها بكل أفراحها،

انكساراتها، شطحاتها، وجنون نمارسه في الخفاء كي نحتفظ بعقولنا طازجة، كي لا نتعفن بسبب تداول الأيام والأحداث، كي نحتفظ بقلوبنا نقية، تقية، مقابل كل هذا الدنس الذي نراه، والذي قد يمارس ضدنا بقصد أو بغير قصد.

في داخل كل منا كهفه، ملجأه، حيطانه وأسوار أمانه، والسقف الذي يحتمي تحته وفيه، وسره الذي يحاول جاهدا أن يخفيه. يتساقط الواحد منا أجزاءا كما تتساقط أوراق الشجرة وسيقانها الجافة كل خريف. نتجدد، نخلع أثواب أنفسنا البالية دون أن نخشى الرقباء، ليكون كل منا هو الظالم لنفسه والمظلوم والحكم. هناك يقام الميزان لحساب النفس قبل يوم الحساب.

***

لحظة شرود

هل جلستم يوما نتأملون في اللا شيء، وتبخرت الكلمات والحروف من أذهانكم؟
هل أراد أحدكم في لحظة ما أن ينطق فتوقفت العبارات في حنجرته كعظمة لا تريد أن تأخذ طريقها إلى المعدة وهي تأبى كذلك الخروج إلى أيادي المنقذين؟
هل وقف أي منكم في وقت ما أمام مفترق الطرق ضائعا تائها، لا لافتة هناك ولا دليل؟
هل رأيتم ذلك العمود الممتد من السماء إلى الأرض يلتف حول ذاته عاصفا كل ما في طريقه ينثر الأشياء كأوراق الخريف يفتتها كالعهن المنفوش.
بعدها، يجد الواحد منا ذاته وقد أصبحت في خواء تام،

لا شيء، لاشيء إلا اللا شيء.
عندها أتوقف عن كل شيء للحظات قد تقصر أو تطول وأترك نفسي نتوه كما تشاء وتريد.
إنها فرصة حقيقية لراحة ليس مثلها راحة يتوقف عندها كل نشاط إلا التنفس الهادئ البسيط ودقات القلب الواهية والاستسلام التام لأقصى درجات السكون والشرود.
***

خاطرة و... رد

حين تذوق الفراشة طعم التحليق بحرية، حين تعرف نشوة تحريك أجنحتها في الفضاء. لا يعود بوسع أحد إعادتها إلى شرنقتها ولا إقناعها بأن حالها كدودة أفضل...
"غادة السمان"
إنها من أجمل الخواطر التي قرأتها... أتدرون لماذا ؟
لأن هذه الخاطرة لامست وترا حساسا في نفسي...
لأنني امرأة حرة، هكذا نشأت وتربيت وعشت ولا زلت.
لأني دائمة التحليق، لأن جناحي لا يهدآن. لأنني أقيم في الفضاء الممتد ولا أرتضي السكنى إلا في الأعالي، بالسمو في الحياة والمعاني. لأنني أعشق النور وأكره الظلام. لأن حريتي أقدس ما لدي، لكنني مكبلة بخيوط

من حرير، من ود ومحبة، تشدني إليهم؛ أحبتي.
ربما أنا أنانية، ربما هم أنانيون. ربما كما يقولون ؛ يخافون علي، فالفراشات جميلة لكنها هشة، تحب النور والدفء، مصيرها الاحتراق، فنور الحرية جحيم لا جنة، وهو لا يطاق. والفراشات تحب شهد الزهر، والأزهار لا تخلو من الأشواك. لكنهم لا يعلمون أنني أنثى نسر، أو بالأحرى أنثى العقاب. أحلق في ظل الشمس، ولن ألومهم فهم لم يروا مني غير الرقة والحنان ولن يروا مني غير الحب.

***

الهروب إلى نزهة الخواطر

كم هو سهلا أن تكون فناناً، أديباً، شاعراً، كاتباً ومتأملاً في الحياة من حولك، أو مؤلفاً تكتب ما يفيض عليك عفو الخاطر، خاصة إن منحك الله شيئا من موهبة.
وكم هو صعب أن تكون باحثا، دارسا، ناقدا تتوخى الحق والصدق والمنهج العلمي الصارم.
قد تأتيك خاطرة قبيل نومك مباشرة فتغادر الفراش لتكتبها.
وقد تأتيك فكرة وعيناك تشقشق في أولى لحظات صحوك، أو وأنت في الزحام بين الناس تتسوق أو تتحدث إلى أحدهم.
قد تولد خاطرة، قصيدة في ذهنك حتى وأنت نائم، لتستيقظ وتكتب ما تتذكره منها. ولكنك لن تصل إلى

نتائج بحثك دون معاناة تكاد تكون في كثير من الأحيان سجن مع الأشغال الشاقة.
نتوالد الأفكار واحدة من أخرى إلى مالا نهاية، ولكن للبحث نتائج محددة تحتاج لميلادها صبرا طويلا. تأتي الخواطر كثمار للمعاناة اليومية والثقافة العالقة على جدار الذات، ولا يكون البحث إلا بالجد والاجتهاد. وكثيرا ما تجتمع الأولى مع الثانية ونتحدا في بحث مبتكر أصيل.

***

أمومـة

من قال أن امرأة فوق سنين عمرها تلوث طهر قدس ثوبها، إنما هو ثراء النفس قد لونها، فبدت كقوس قزح. وبدت الخيالات حقا وحتى بعض مناماتها.
شجرة تنمو، وتنمو فسائلها معها بنفس الماء بنفس الغذاء بنفس تربتها. تتسامى بفروع تعلو تطاول الفضاء تتمايل شذلى مع كل ساق فرع مع كل ورقة.
هي أم بالخلقة، هي أم بالفطرة، هي أم تزيدها الأيام حباً ومرحمة فيفوح عطر الحب ويتناثر رحيق الزهر من حولها فتهيم الفراشات فوق أغصانها وتقصدها ملكات النحل تمتص الرحيق دون إذن أو رضا. وخسأ من ظن بها السوء.

من قال أن الأم لا تحب لا تهيم بعشق وليدها. من قال أن الأصل لا يرتبط بالفرع، من قال أن الحب لا يسمو بصاحبه. الحب نوع واحد ونحن من نشكله.
أحب من أحبهم ولا أخجل من هوى، هو أطهر من أنفاس الفجر وقت الصلاة. تحب الأم كل أولادها. وما عيب أن تزيد واحدا منهم بما يستحق من حبها ولي من الأحباب من لم ألده أو أحمل به. ولي بعد عليه حقاً.. أُشهد الكون أن يؤديه.

***

وتبقى خطواتنا حيرى

انطلقت كالسهم حتى جاوزت نصف الطريق، رأت الفراشات والأزهار وبئر ماء.
هدأت من عنفوان سيرها، توقفت تلتقط الأنفاس تأخذ جرعة ماء، تمتص رحيق أزهار الربيع لتكمل رحلة ظنتها قصيرة.فإذا بالأفق كلما اقتربت رأته كما هو، لم يكد يدنو نحوها. لملمت قواها بعد راحه، وهرولت نحو الأفق من جديد.
الشمس تكاد تغرب، وصلت ما قبل التلال وقرصها المشع يكاد يعمي الناظر إليها من شدة توهجه. هدأت الخطى فالمسير طويل، طويل.
كل الأرض حولها ورد وياسمين، وأشجار تزهو بزهرها

تحت الشمس تراقص شعاعا يأتي من هنا وآخر ليس ببعيد. خيوط الغسق أخذت تتبدى، فإذا المكان قطعة من الجنة...
ولكن الطريق ما زال طويل طويل. والخطي ثقلت. هي وحدها فكيف لها أن تكمل المسير. لا يد بيدها ولا مركب يحمل همها. والوحشة تزيد. خيوط الظلام غزلت حولها ثوبا ثقيلا. هي وحدها. والقلب خاشع لظلمة الليل... وما انتهى المسير.
تبقى هنا؟ تغادر؟ تقفل عائدة حيث كانت؟ أم تحث الخطى علها تجده خلف التلة فتنسى ما بها. تساءلت أتنتظر غدا مشرقا أم تقفل عائدة لعل العودة أقصر من رحلتها إليه؟
تعبت وتوقفت وأنزلت عن ظهرها حقيبة فيها خيمة ووسادة وزجاجة ماء ومصباحا صغيرا، وكتاب شعر عله يساعدها في احتمال الليل الطويل. وأخذت تردد: لن أسامحك أبدا وصلتك أم وصلتني فكلا الأمرين علي صعب.

* * *

نبتة على شرفتي

كل فجر أتفقدها. نبتة الروز على شباك غرفتي، قبل الوضوء، قبل الصلاة وقبل شرب قهوتي.

بخير هي؟ وهل تزهو بألوانها؟

رقيقة تتعبد شمس الشروق، تسبح ربها. لكنني بدأت أشعر بتغير يصيبها. أرويها حبي قبل الماء.

كل يوم ألامس، أداعب بتلات الزهور وسيقانها. هي منذ أيام حزينة، ذابلة وما علمت ولا فهمت سرها.

لكنني اليوم ويدي تراقصها دون أن أدري كسرت بعض أغصانها وبعض براعمها، فقد انقبض الفؤاد فانقبضت أناملي وما صحوت حتى أحسست الكسر بين يدي قبل أن أسمعه بأذني، فأدركت أن نبتتي عانت بقدر معاناتي.

نغم وموسيقى

جنتي الصغيرة التي لم تكتمل بعد، فيها جيتاري الذي إن صمت أنا تكلم هو.

من طبيعتي أنني أحب الموسيقى أكثر من الغناء، وبخاصة موسيقى الطبيعة والكمان المنفرد. ولكن قد يحدث صدفة ودون أية مقدمات أن يتسلل إلى أذنيك كلمات بعض الأغاني أو مقطع منها فإذا هي تتطابق مع ماتشعر به فتذوب حنينا، وتغفو على صوت المغني وتحلم بأدق التفاصيل وكأنها حقيقة. غريب هو الإنسان حتي عن نفسه.

غريب كل ما فيه حتى على ذاته. يعيش عمرا طويلا وهو لا يدري مكنوناته حتى يفاجيء بأمر ما فإذا هو

أمام حقيقته التي لم يكن يدري عنها شيئا.

***

حياة بين الكتب

في مكتبتي أقضي معظم أوقاتي. سرقتني منها بعض أوهامي. ولكن إليك يا وطني معاد.

هنا أجلس لساعات وساعات. قضيت عمري بل أفنيته ما بين صفحات الكتب، تعودت رائحتها أكثر مما تعودت رائحة عطري، جلست إلى المؤلفين عبر كتبهم أكثر مما جلست إلى أفراد أسرتي أو الأصدقاء والمعارف والأقارب.

مكتبي معبدي ومكان تأملاتي ووحي فكري، فيه سجادة الصلاة والقرآن والإنجيل والتوراة وكتاب زرادشت

وغيرها من كتب الأديان والعقائد. لم أعمل في حياتي إلا عامين، درست فيهما الرياضيات والعلوم للصف التاسع. ثم تفرغت للدراسة والبحث وشؤون منزلي.
ليس لي صديقات بالمعنى المتعارف عليه للصداقة بين النساء. لا أعرف قهوة الضحى معهن، ليس انتقاصاً ولكن لم أجد لدي ميلا لهذه الأمور. أشعر أن الوقت يتحول إلى سراب إن لم أقرأ أو أبحث في بطون الكتب.. حياة وما أجملها من حياة
لولا حدث قلب حياتي رأساً على عقب.
***

شعور رهيب

ماذا يكون شعورك عندما تكون فوق قمة جبل شاهق في أعلى ذراه، تهاب البقاء، تخاف السقوط. قلق في كل لحظة وآن. ترى المكان دونك صغير صغير. وماحولك جد ضيق. والشمس تكاد تشوي منك الجلد وتغلي دماء الشرايين. والبركان أسفل منك. لا راحة، لا هدوء، لا استقرار.
وفجأة تتحول السماء فوقك إلى غيوم مدلهمة سوداء مثقلة بمائها.، والأرض تحت أقدامك كتل من جليد رخو. والريح تصر على اقتلاعك. فيهوي الفؤاد منك فجأة وبلا مقدمات إلى القاع، إلى أدنى مكان في الوجود، إلى

بحر جليدي مرن، تغوص فيه.
أبعد هذا تبقي لك، وبك، ومنك حياة.
***

استعادة الروح لروحها

ما أجمل أن تستعيد الوعي بتفاصيل حياتك اليومية بعد غفلة وضياع.ما أجمل أن يبزغ الفجر ويزيل من أعماقك ظلمة كانت مستحكمة في النفس.
إحساس جميل، مريح، منعش أن تصحو وتجد الوحش المستبد بك قد غادرك، فتشعر بالسلام والأمان والراحة.
تشعر بأنك استعدت أنفاسك، تشعر بأن صدرك فجأة قد اتسع، وأن دقات قلبك قد انضبطت وزال اللهاث.
حتى الجسد التعب المثقل بأحماله أصبح أكثر خفة ونشاط، والروح تحلق في سماوات الهدوء والدعة.
تستمتع بوسيقى نسائم فجر مفعم بكل لذة روحية متسامية

تشربت بكل ألوان السكينة التي ظن أنها قد اختفت.

***

إنسان قد يكون تاه

لا أدري أيهزأ بنا الزمن أم أننا نحن من سكنا زمنا غير الزمان، وشحنا الذات بأحلام ليست كالأحلام، ونام منا التعقل وصحت فينا الأوهام؟

هل صح فينا رأينا، أم صحت فينا ظنونهم؟

وهل بعد هذا يصح منا العزم عودا على بدء ، أم تسبي عقولنا جنيات الخيال؟

وهل ما نعيشه حلم، كابوس، هلوسات نستفيق منها على أسرة النيام؟

فإن كان هذا هكذا فهي رحمة الرحمان. وإلا فلا بد يوماً يثور من أسفل منا بركان مؤجج. فما همنا وقتها إلا لحظة وعي ندرك بها ما كان. وما آسى عندها إلا

على لحظة حضور الجان. فمن لي وقتها بملاك من السماء ينتشلني، يطير بى، يبعدني إلى عالم الأمان.

***

قلبي نقي

لا أرض، لا فضاء، لا سماء تقلني إن أنا أسأت الظن بذاتي. لم تضع مني الخطى، ولم أزل عن الحق ولا وقعت في ضلالات.

قلبي التقي النقي لم يعرف خبثا ولا تجمعت فيه بعض القذورات.

لا زال نحلة طعمت من رحيق الزهر فأنتجت عسلا مصفى منه كلماتي. لم أكفر بنفسي يوما، ولن أرتد عن إيماني بذاتي، وما غيرت في يوم بعض قناعاتي. الحب سيدي نعمة، وللحب سماوات، تخط على غيماتها كلمة، لتمطر فوق أرضنا رحمة لولاها ما أزهر الورد، ولا كان شذى ، ولا تنفست رئتاك، ولا نطق لسانك لفظا

هو من قدس الأقداس.

***

من طقوسي اليومية

أجمل الأوقات التي احتفي بها خلال يومي- الذي لا أدري كيف تتسارع أوقاته لتصبح من الماضي- هي قبيل النوم وساعة الفجر. لي فيهما طقوس أن لم أقم بها أشعر أن يومي كله ضاع هباءا أو سرق مني.

إنها أوقات روحانية بامتياز. ما بين تأمل واستماع لآيات من كتاب الله، أو موسيقى هادئة، حالمة تحمل روحي إلى إشراقات وبهجة ليس لها مثيل.

استشعر كل كلمة كأنما أسمعها لأول مرة، وكل نغمة كأنما هي جناحي طائر يحلق بي في دنيا غير دنيا الناس. لحظات كثيراً ما بكيت فيها طرباً أو خشية أو حنين.. كثيراً ما تحدثت إلى نفسي، عاتبتها أو واسيتها

وسامحتها، كثيرا ما قدمت لها الأعذار ووعدتها بغد أفضل..

***

رُحماكَ ربي

أيُعقل أن يكون لصغيري كل هذه الحكمة، كل المعارف من كل لون. ثقافات قد جمعت بين الجلد والعظم، اختلطت بدم القلب والخلايا فأنضجت ذهنا، عقلا ما له مثيل.

يومنا أربع وعشرون ساعة فمن أين له وقت يفيض عنها ويزيد. جوانبه آلاف الصور، وله آلاف الحكايا. في جعبته كل عجيب غريب. كل هذا عن أصالة أم أنه تجميع زهور البساتين والحدائق والمروج. كم له من قدرات في تشكيلها في باقات وفي القوارير.

من أين له حكمة الأجداد ونشاط الطير ومرونة الطيور. أيركب الجن أم يركبه. أم هي منحة الإله الذي صوره.

أم هو بعد ذلك جهد المجد المجتهد. ومثابرة الباحث وقدرات الفنان.
إن جمعنا للجمال لا بد يوما يثمر الجمال. لا بد يغمرنا بفضله، بعطره، بزهوة الألوان. لا بد يوما يزيدنا جمالا فوق الجمال. فأنت من ألهبت شوقي للمعرفة، ألهبت فيَّ فضول الجان.
ألهبت الحنين لجذوة العرفان. وأعدت إشعال اللهيب الراكد تحت الجمار، أعدت تحليق النار فوق موقدي وأنرت ليلي والنهار.
حركت سكر الأعماق في قاع نفسي وكنت أظن أني ذاك القادر الفنان.
أذبت سكرا متحجرا من عهد موسى مروراً بيوسف حتى استقراره بقعر ذاتي ولم أكن أعلم.
أذبته حتى تطايرت فراشات الحقول نحوي وهاجمتني أرتال نحل جائع للرحيق.
الآن فقط علمت سر نفسي الذي أودع فيَّ فكان سر الجذب من عهد آدم حتى الآن. قد كنت أسائل نفسي لما كل هذا الحب، كل التهافت نحوي. والآن، الآن عرفت سري. فلا تتركني صغيري أذوب وأختفي فقد بدأت بالذوبان.

***

عدوى الفرح

يبدو أن الفرح معدي، له فيروس خاص به، ينتشر في الجو، يصيب من يعرض نفسه له.

وربما أنه قد أصابني اليوم. وصلني. كيف، لا أدري! إنما كان في الجو هائما فالتقطته أنفاسي.

ويبدو أن السعادة كدوائر الماء التي تبدأ بشيء ما بسيط كحصاة أو حجر أو.. تأخذ بالاتساع حتى تشمل أبعد ما يمكن من مسافات.

***

لماذا لا نَشعرُ بالسعادة؟

كم تمنيت أن تشدو قيتارتي الفرح، تتسابق ألحانها نحو أذنيك أنغاما تحملك إلى مرافئ السعادة.

كم كنت أتمنى أن أشدو لك كما تشدو الطيور، وأتراقص حولك كما الفراشات حول النار والنور. كما البجعات في برك يشرق ضياء القمر في مياهها، تستحم بماء اختلط بالنور.

كم تمنيت أن يزهر قرنفلي فوق شفتيك، وأسكب كل جمال الكون في عينيك الساحرتين لأسبح فيهما كيف أشاء.

كم تمنيت أن أنثر الفرح من حولك كما تنثر نسمات أوائل الصيف بتلات شقائق النعمان فوق التلال. كم وكم حبيبي ولكن أنا وأنت لا نشعر بالسعادة. أنا وأنت

نعيش عمق ساديتنا، نعيش الألم والإحباط.
يعيش كل منا على حد سيفه وأنا حقيقة لا أعلم لماذا؟
ألسنا من البشر.
أليس من حقنا أن نعيش سعادتنا كغيرنا من الناس؟
لماذا يعذب كل منا الآخر ونحن نستطيع أن نتشارك فرحنا خطوة خطوة. لماذا العذاب والألم؟!
أليس لكل شيء بديل حتى نصل؟
لما لانضع يدا بيد لنحقق سعادتنا؟
وهل التعاون أصبح مستحيلا في عالم العرب؟
سأكفر بالعروبة، سأكفر بالحب، سأكفر بالجمال وكل قيمة آمنت بها، وأقول قد كان لي حبيب ولكن من ورق.

***

اللفظ والمعنى

ليت أمنيتك تتحقق «زكي نجيب محمود»...

المفكر المصري «المجاهد»، عاش عمره كله وهو يحمل هموم وطنه وهموم أمته العربية على أكتافه، يصارع صغار العقول. كم حاولوا تقزيم قامته العملاقة ولكن هيهات لأمثالهم أن ينالوا من أمثاله!

تمنى هذا المفكر أن تكون اللغة كالرياضيات، كالجبر والحساب ورموز المنطق. أن يكون لكل لفظ، لكل عبارة معنى محدد لا يتلون كالحرباء على أغصان الشجر. أن تكون لها قيمة واحدة وواحدة فقط كما للعدد..

في كتابه- نحو فلسفة علمية- قال زكي نجيب محمود: الكلمات التي نتحدث عنها الآن هي رموز اللغة أو ما يقوم مقامها حين لا يقصد بها أبدا أن تشير فيما تشير إليه إلى شيء مما يختلط بالجانب الوجداني من حياة

الإنسان، فهكذا يراد للكلمات أن تخلو من شحنتها العاطفية الشعورية كلها حين يراد لها أن تكون أداة في نقل المعرفة العلمية، أو المعرفة الإخبارية التجريبية..

وعقيدتي هي أن عصرنا هذا- في عالمنا العربي- يسوده استهتار عجيب في كل شيء، والذى يهمني الآن ناحية خطيرة من نواحي حياتنا، هي ناحية التفكير والتعبير.

فقد اعتادت الألسنة والأقلام أن ترسل القول إرسالا غير مسؤول، دون أن يطوف ببال المتكلم أو الكاتب أدنى شعور بأنه مطالب أمام نفسه وأمام الناس، بأن يجعل لقوله سندا من الواقع الذي تراه الأبصار وتمسه الأيدي.

فلو كان هذا «الارتجال» الحر الطريق من قيود الواقع وشكائمه، مقصورا على جوانب هينة يسيرة من حياتنا، لما كان الأمر بحاجة إلى جهد يبذل.

لكنه ارتجال اتسعت رقعته، حتى شمل حياتنا العلمية والعملية كلها أو كاد، بحيث أصبح أمراً مألوفا أن نرى الحاكم عندنا يحكم الناس بلا عد أو حساب، والاقتصادي يصدر في مشروعاته عن غير إحصاء وأرقام، والعالم يقول القول بلا سند أو دليل.

وهذه كلها- في حقيقة الأمر- فروع تفرعت عن مشكلة أعم وأضخم، هي مشكلة الأخلاق التي أحاطت بحياتنا الفردية والاجتماعية من جميع جهاتها، فتراها بادية في مظاهر لا تخطئها العين، وهل من سبيل أمام الرائي أن

تخطيء عينه هذا الاستخفاف الشامل، الذي رفع عن كواهل الناس كل شعور بالتبعية فيما يقولون أو ما يفعلون؟
لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم، وكدت أقول ألا فرق بين عالم وجاهل، فهو استخفاف بكل شيء، قد تغلغل في ثنايا حياتنا، واصطبغت بلونه دنيانا بكل ما فيها من جليل وتافه، حتى أصبح المتعقب للحق على عسر الطريق ومشقته، هو الحقيق منا بالسخرية والضحك!

* * *

من مناهج النقد الفلسفي

ليس عيباً ولا خطأ منهجياً أن يستفيد المفكر العربي من سائر المناهج النقدية، في دراسة الفكر الإسلامي خاصة والفكر العربي عامة، من خلال الواقع المادي الذي أنتجه من جهة ودراسة الأفكار ذاتها من جهة أخرى، خاصة تلك المناهج التي أثبتت جدواها في الدراسات النقدية.
إن هذه الدراسات والمناهج المتنوعة تثري الدراسات العربية وتعمل على اتساع أفق المفكر العربي، بتنوع مناهجه وتنوع أدواته النقدية. كما تخلق مجالا رحيبا للنقاش وتبادل الآراء وتعمل على تقبل واحدنا الآخر.
إن التقوقع ضمن مذهب فكري واحد، ومنهج نقدي واحد،

ومجموعة أفكار واحدة، لا يتم تطويرها من خلال التحليل النقدي، له حري أن يحصر الفكر العربي في بركة واحدة، مهما اتسعت وامتدت حدودها وتعمقت أغوارها، فإنها مع مرور الوقت وركود الأفكار- مهما كانت هذه الأفكار عظيمة- نجد أن هذه البركة قد تحولت بما تحتويه إلى مستنقع آسن.

من هذه المناهج التي يمكن تطبيقها لدراسة الفكر العربي والإسلامي معا هو المنهج العلمي. أو ما يمكن تسميته بـ "المنهج المادي التاريخي" وأعظم أقطابه في عالمنا العربي هو المفكر والناقد الفلسفي حسين مروة- رحمه الله- من خلال كتابه «النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية».

ما يهمنا في هذا المنهج هو الرؤية التي تكشف العلاقة الواقعية الموضوعية، غير المباشرة، بين القوانين الداخلية لعملية الإنجاز الفكري وبين القوانين العامة لحركة الواقع الإجتماعي. حتى لا يكون هناك قطع لصلة هذا الفكر بتاريخه الحقيقي الموضوعي.

***

من أجل شروق جديد

إن أردنا تغييراً حقيقياً للواقع العربي علينا دراسة منظومة القيم: الأسس والمبادئ، المثل والغايات القصوى المحركة للإنسان العربي.

وهذه جميعها نجدها ليس في مستوى عقله الواعي المدرك للواقع الذي يعيشه بل هي في أعماق ذاته، أي ما يمكن أن نسميه مجازاً- العقل اللاواعي أو العقل الباطن- وهو الثقافة المتحكمة في سلوك الإنسان دون وعي منه. هي فهمنا للأديان ولمنظومة القيم وسائر ما برامجنا عليه كنظم تربوية منذ الميلاد مروراً بكل كتاب قرأناه أو ثقافة تلقيناها بأية وسيلة من وسائل الإعلان أو الإعلام أو التثقيف.

* * *

مفردات أكرهها

الصمت، الغياب، الظلام، الوحدة، الفراغ...

ألفاظ، مفردات، كلمات أكرهها أكثر مما أكره الموت. فهو حق، أما تلك المفردات فهي بالنسبة لي أشد إيلاما من الموت وأكثر وحشة.
أخافها، أخشاها، أتجنبها قدر ما أستطيع، لا أريد معايشتها أبدا مهما امتدت بي الحياة. عندما أجد كل ما حولي صامتا، هامدا، لا حراك فيه، ساكنا في هدوء قاتل، تستبد بي وحوش الأفكار، والخيالات، وتهويمات النفس. ولا يكسر كل ذلك عندي ويبدده إلا صوت قارئ للقرآن خاشع القلب واللسان والجنان، فتسمو معه نفسي إلى عوالم الحق، وأتخيل كل تصوير فيه وتسرح روحي في

ملكوت الله، أيا كانت هذه الصور حتى وإن كانت صور للعقاب والعذاب، فالتصوير في كتاب الله جماليات.
ومقابل ذلك هناك تلك الموسيقى الهادئة، الرائقة التي تطرب النفس، وتحمل الذهن والفؤاد إلى حدائق غناء من كل صنف ولون. والغياب، الغياب صمت ولكن من نوع آخر، هو صمت القلوب الدافئة عن التغريد للأحبه، وصمت اللسان عن التغني بهم ولهم. والظلام مهما جلب لنا من هدوء وسكينة إلا أنه صمت عن كل شيء.
إنه الخرس، إنه البكم، العمى ولكن بنكهة أخرى. إنه الجهل بما يدور حولك، يكفي لفظه وما يحمله من معان سلبية. يكفي أنه مشتق من جذر واحد مشترك مع (ظ- ل- م) ... والوحدة هي كل ماسبق وزيادة... أما الفراغ فهو أس الخراب. وهو بعد فراغ القلوب من المحبة. وفراغ الأفئدة أشد وأمر.

***

منطق العقل

أمس رأيت لغزاً قيل عنه: لغزاً حير العقول فهل لديك تفسير؟

بصراحة السؤال استفزني، شغلت الفيديو وانا أقول لنفسي: مؤكد أن ليس هناك لغز وإنما هي مجرد حيلة ذكية لا أكثر. خدعة للعقل وقبل ذلك للحواس.

نظرت إلى القطعة التي تمت إزالتها فتبدى لي منطقيا أُن لا بد هناك نقص قد حدث في القطعة الكلية للشوكولا رغم أن عدد المربعات بها بقي كما هو.

كان ٢٤ وبقي بعد إزالة القطعة الصغيرة ٢٤ أيضا، لكن يأبى العقل ومنطقه أن يستسلم للتناقض.

قلت في نفسي مستحيل أن يبقى الوضع على ما هو عليه وقد أزيلت هذه القطعة الصغيرة من القطعة الكبيرة.

لا بد أن هناك نقصا يساوي ما مجموعه مساحة هذه

القطعة الصغيرة.
لم أكتف بذلك بل قمت بإجراء تجربة عملية لأتأكد. رسمت ٢٤ مربعا، ٦ طولا و٤ عرضا، ثم قمت بالقص المائل كما في الفيديو بالضبط، وتابعت العملية بكل دقة. وما أن انتهيت حتى عاد الشكل كما هو ٢٤ ولكن، عندما قمت بقياس طول القطعة الكلية وجدت أن الطول الكلي قد نقص ميليمترات، إن حسبت مساحتها من خلال حساب الطول الصغير الذي نقص × العرض كانت هذه المساحة هي ذاتها مساحة المربع الذي تمت إزالته.
موضع الخدعة أن القص المائل حول المربعات في الصف الثالث في القطعة الكبيرة إلى مستطيلات فبقي العدد كما هو ولكن نقصت المساحة، هذه نقطة، والأخرى أن إبدال القطع الطولية ثبت الخدعة. أي إبدال وضع المربعات بصورة معكوسة. ومن يريد التأكد فله ذلك.
***

أتدرون لماذا أعدم سقراط؟

أتدرون لما أعدم الأثينيون فيلسوفهم العظيم؟!
لأنه بكل بساطة أراد أن يكشف لهم حقيقة مبادئهم، وأن ينبش الأسس التي تقوم عليها حياتهم والجذور التي تغذي سلوكياتهم.
أراد أن يوضح لهم مدى الفصام الذي يعيشونه بين ما يدعون أنهم يؤمنون به وما يؤمنون به حقا.
كان كالنحلة الطنانة تقض مضاجعهم وتغتال سكينتهم الموهومة.
أراد لهم أن يستيقظوا من غفلتهم التي هم بها يعمهون.
باختصار عراهم من ثياب مزركشة حسبوا أنها تستر عوراتهم. والأهم أنه حاول التركيز على فئة الشباب، فاتهموه بإفساد أخلاقيات هؤلاء.

* * *

نقد وانتقاد

ليس شرطاً أن تكون مسلماً لتنتقد واقع الحياة العربية والأحداث التي تدور في عجلتها الطاحنة لكل مبدأ وقيمة.

ليس شرطاً أن تكون عربيا لترى مدى تدهور العقل العربي ومدى غيابه عن الواقع المعاش في عالم يتآكل كل ما فيه بدءا من الإنسان وحتى ذاك اللفظ ودلالالته عليه، بل ربما يكون ذلك واحداً من الحجب التي تختفي وراءه الحقائق.

كن من تكون وانتقد جميع مظاهر الحياة العربية بحياد وواقعية ومن خلال قوانين العلم ومبادئ العقل، ومن خلال الأنساق المنطقية السليمة ولك أخي في الإنسانية الفضل كل الفضل.

وما أقدمه بين يدي القارئ إنما هو كتاب من هذا النمط الجدي في طرحه العلمي في معالجته والمنطقي في آرائه والنتائج.

نظر إلى واقع الإنسان العربي مسلما ومسيحيا، عربي الأصول ومستعربا، وتفكر في الأصول الإسلامية من قرآن وحديث وتراث، من وحي ورسالة ورجالات دين وفكر، واستنتج ما أعتقد أنه استنتاجات سليمة وصحيحة وصادقة.

أخي المسلم ليس خطأ أن تقرأ لغير المسلمين في الفكر العربي الإسلامي، وليس خطأ أن تقرأ لغير العرب في شؤون عربية، بل من واجبك أن تقرأ لكل ناقد حتى وإن كان حاقدا لأنك عندها سترى نفسك في مراياهم. فإما هم صادقون فتنتفع من انتقاداتهم سواء كانت إيجابية أو سلبية فتصحح واقعك وتصحح أفكارك.

وأما هم كاذبون مدعون فتفند أكاذيبهم فتصقل قدراتك وتثبت لهم صحة معتقداتك وتبرز قدراتك وتتمكن من صد هجومهم بكل عقلانية وتحضر ورقي دعى إليه إسلامنا. من خلال قوله تعالى: «وادعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن».

***

المعنى... ماذا يعني؟

المعاني والقيم العظيمة من حق وخير وجمال، وسائر المثل والأخلاقيات جميعها إنما هي ألفاظ لن تكون ذات قيمة حقيقية طالما هي جاثمة على صدور صفحات الكتب وطالما هي مجرد حبر على ورق حتى وإن كانت في طيات الكتب المقدسة.

حتى وإن كانت في دواخل الإطار الذهني لأي انسان مهما علا شأنه وارتفعت قيمته. حتى وإن كانت هذه القيم محفوظة في دواخل الجماجم البشرية، لم تتحول إلى فعل يمارس أو وقائع في العالم المادي الحقيقي. في عالم الأشياء الملموسة. إنها إن لم تتحول إلى وقائع ستتحول إلى مجرد لغو نلغو به.

لا فائدة ترجى منه على الإطلاق. تبقى مجرد معاني معلقة بين السماء والأرض. كالمطر المتبخر قبل أن يصل إلى تربة الأرض.
والإنسان هو الكائن الوحيد الذي بإمكانه تحقيق هذه القيم والمبادئ والغايات العظيمة ودونه لا وجود لها. ولهذا قد ضاع الإنسان العربي وضيع نفسه وواقعه لأنه اكتفى باللغو دون الفعل. فهل أنا مخطئة؟
***

التحول سر الوجود

هكذا أرى: لم تخلق من العدم ولن تصير إليه، ولكن لا بد من التحول. فالتحول سر الوجود. لا بد من انتقالك من حالة إلى حالة.
كنت نفسا- أيها الإنسان- بلا جسد، وها أنت كائن مكتمل. لا انفصام فيك. تعيش حياتك الدنيوية مسؤولا عن ذاتك عن قراراتك. إن اجتماع ما هو روحاني فيك وامتزاجه بما هو مادي أعطاك صفة البشرية.
نفحة من روح الخالق جعلتك صاحب قرار، حر، ذو اختيار. ولهذا ستحاسب.
ولأن هناك ما سيعترض سبل حريتك فهناك فرصتك للبدء من جديد في كل مرة مهما تعددت المحاولات. لا

بد من التحول من حالة إلى حالة، تحول سرمدي يبدأ من نطفة فعلقة فجنين ثم مولود، إلى مراهق... حتى يأتيك عجز الموت لتعود كما بدأت نفسا بلا جسد في عالم لا تدري بعد عنه شيئا إلا في كتب الأديان.

ليس التحول في شكلك المادي أو بنائك، ليس التحول في وظائف الجسد فقط بل هناك تحولات في الصميم من روحك وهما قد يسيران جنبا إلى جنب وقد يسبق أحدهما الآخر وقد تحدث ثورة روحية تهز أعماقك هزا عنيفا، قد تفجر طاقاتك أو تتسفك أشلاءا.

ولو أنني تمكنت من الخروج من جسدي لسألت نفسي: ما أنت، ومن أنت أيها الإنسان؟! ولأجبت، إنك كلك. إنك هذه الروح هبة الخالق لك، أنت النفس التي هي قوام حياتك وأنت، أنت الجسد الذي يتحقق فيه وجودك كائنا بشريا. أنت هذا الشاهد والشهيد، أنت صاحب العقل ومنطقه، وصاحب الفؤاد وحواسه. أنت شاهد في هذا الكون على وجود خالقك، وأنت الشهيد على ذاتك. كل ما فيك شهد لك أو عليك، وروح من الله فيك تشهد بوحدانيته.

* * *

لماذا نحارب العقل؟

والجواب عندي: لأنه السبيل الوحيد والأوحد الذي يشكل وعي الإنسان العربي المسلم وغير المسلم في عالمنا العربي يحارب العقل ويعدم.
فالعقل هو الحركة التي ننتقل بها من شاهد إلى مشهود عليه، ومن دليل إلى مدلول عليه، ومن مقدمة إلى نتيجة نترتب عليها، ومن وسيلة إلى غاية تؤدي إليها تلك الوسيلة.
العقل إذا منهج، طريق، من... إلى، والعقل عقلان: عقل مكون وعقل مكون. أي عقل يحصل المعلومات وعقل يعالجها لتشكل إنسانا واعيا.

فالوعي عندي يأتي من معالجة العقل للمعلومات والخبرات المكتسبة بالعمليات اللانهائية العدد، وكلما زادت هذه العمليات من جهة وزادت الخبرات المكتسبة من جهة أخرى زاد الوعي. وكلما زاد الوعي اتضحت للبصير مكامن العطب، ومفاصل الخلل، فكان لا بد من محاربة المبصر والبصير.

***

من مناهج النقد الفلسفي

ليس عيباً ولا خطأ منهجياً أن يستفيد المفكر العربي من سائر المناهج النقدية، في دراسة الفكر الإسلامي خاصة والفكر العربي عامة، من خلال الواقع المادي الذي أنتجه من جهة ودراسة الأفكار ذاتها من جهة أخرى، خاصة تلك المناهج التي أثبتت جدواها في الدراسات النقدية.

إن هذه الدراسات والمناهج المتنوعة تثري الدراسات العربية وتعمل على اتساع أفق المفكر العربي، بتنوع مناهجه وتنوع أدواته النقدية. كما تخلق مجالا رحيبا للنقاش وتبادل الآراء وتعمل على تقبل واحدنا الآخر.

إن التقوقع ضمن مذهب فكري واحد، ومنهج نقدي واحد، ومجموعة أفكار واحدة، لا يتم تطويرها من خلال التحليل النقدي، له حري أن يحصر الفكر العربي في بركة واحدة، مهما اتسعت وامتدت حدودها وتعمقت أغوارها، فإنها مع مرور الوقت وركود الأفكار- مهما كانت هذه الأفكار عظيمة- نجد أن هذه البركة قد تحولت بما تحتويه إلى مستنقع آسن.

من هذه المناهج التي يمكن تطبيقها لدراسة الفكر العربي والإسلامي معا هو المنهج العلمي. أو ما يمكن تسميته «بالمنهج المادي التاريخي» وأعظم أقطابه في عالمنا العربي هو المفكر والناقد الفلسفي حسين مروة- رحمه الله من خلال كتابه «النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية».

ما يهمنا في هذا المنهج هو الرؤية التي تكشف العلاقة الواقعية الموضوعية، غير المباشرة، بين القوانين الداخلية لعملية الإنجاز الفكري وبين القوانين العامة لحركة الواقع الاجتماعي. حتى لا يكون هناك قطع لصلة هذا الفكر بتاريخه الحقيقي الموضوعي.

***

سيطلع من عتمتي قمر

تواصلنا عبر الكلام أعقد طرق التواصل. رغم أن الكلمات لها معنى تحدده القواميس. رغم أن للألفاظ مقاييس. رغم أن الكلام ما وجد إلا ليفهم، إلا أنه أصعب أدوات التواصل بين الناس.

يسمى الحديث تعبيرا لأنه أهم ما يجعل الغير يعبر الى ذواتنا ونعبر به إلى ذواتهم، ولكنه خلال العبور يحمل- بتشديد الميم- بما لا يطاق من الأثقال.

لولا الكلمات ما عبر أحدنا إلى الآخر، لولا الحديث لكنا كالعجماوات. ولكن والله هيهات هيهات، فالكلام مثقل ببقايا التجارب، والكلام مثقل بالرواسب. والكلام

مثقل من حيث يمر. ألفاظنا كالإسفنج الجاف يمتص حتى الرطوبة، يمتص ويمتص حتى يوازي بثقله صخورا. العبارات كالجبال الرواسي تسحق تحتها السامع والقائل. لم أجد في الوجود أكثر ثقلا من كلمة تخرج خفيفة الوزن من فم قائلها وتدخل إلى نفس سامعها.

وفي المسافة بين الانطلاق والوصول تصبح ككرة الثلج المتدحرجة فوق تراكمات الثلوج. لله درك يا فيلسوف العرب، لله درك إذ تمسكت لمنهج للكلام يحتم على المتكلم أن يكون كلامه كالحساب. لكل لفظة معنى واحدا لا أطياف له. وقرآننا يرفض المترادفات.

لو قلت هذه العبارة: (وأقول لنفسي سيطلع من عتمتي قمر.) فستحمل ألف معنى، وربما أكثر بعدد من سيقرؤها.

***

رجل جاءنا يسعى

ليعلمنا أسس الحوار وهو لا يعلم أننا سنحاوره حوار الطرشان..،

البروفسور «وليد حمارنة» كان في أردننا واستضافته الجمعية الفلسفية الأردنية والمنتدى الاشتراكي. كانت محاضرته بعنوان «الأسس المعرفية للحوار»، محاضرة أخذت بتلابيب قلبي قبل أن تستولي على دماغي لتحتله وتقبع فيه لتسكن إلى أصدقائها فيه.

حقيقة شعرت انه يقول بلسانه تلك العبارات التي هي أصلاً مكتوبة على جداري المعرفي منذ صباي، عبر

فيها عن مشاعري وإيماني العميق بالسلام الذي نفتقده ونحن نرى خناقات وحماقات المتحاورين.
ليت السلام يسود بينهم مهما تباينت أفكارهم وتعالت نغمة الرفض لأفكار بعضهم البعض.شرح لنا الفرق بين حوار السفسطائيين والحوار السقراطي. أكد على مسألة الاعتراف، الاعتراف بالآخر، ذاته، أفكاره، كيانه كإنسان شريك لنا على ذات المستوى الإنساني...
أهم ما لفتني منه شدة بساطته وملامحه القريبة إلى النفس وكأنما هو من أقرب الأهلين مني، تواضعه الواضح وأنا أتحدث إليه، كلماته التي تشعرك بأنه يعرفك منذ زمن، لم أكن في تلك اللحظة أعرف من هو إلا أنه جليس د. هشام غصيب، قدمني إليه وعرفني به قائلا: دكتور وليد حمارنة هو من سيحاضر بنا الليلة، لم أشعر أن به ذرة من التعالي، أجمل مثال لعالم جليل قلما نراه بيننا.
والغريب بالأمر ان الحضور أمطروه بأسئلتهم العجيبة الغريبة بعد انتهائه من المحاضرة وكأنهم لم يستمعوا لحرف مما قاله، وكأنهم إنما كانوا يحضرون له فخاخا ليوقعوه بها متصيدين ما اعتقدوا أنه خطأ أو تقصير أو...
حتى أنه قال: أنا أعترف أنني فشلت فشلا ذريعا. نعم سيدي أنت فشلت في أن تهدم أسواراً هم أقاموها بين ذواتهم والحق والحقائق والاعتراف بالإنسان كإنسان...
حتى أنفسهم، لأن ذاك الجدار من زبر الحديد قد أفرغ

عليه القطر يحتاج لمعجزة إلهية لينهار. و أقول لك أنا أنت ولكن كبعد آخر لي. وأنت أنا كبعد آخر لك. ما نحن إلا بشر نعلم ونتعلم مهما كبرنا بالسن أو المكانة أو المنصب.

.....

حمار «حسن أوريد»

«حسن أوريد» مفكر وأديب وأستاذ جامعي مغربي وسياسي. حمله حظه من الدنيا أن زامل الملك محمد السادس على مقاعد الدراسة في المعهد المولوي الذي يدرس فيه الأمراء داخل القصر الملكي.

إذ تجري العادة أن يتم استقطاب تلاميذ متفوقين من مختلف أنحاء المملكة للالتحاق بهذه المدرسة التي تفتح لطلابها آفاقا واعدة. شغل عدد من المناصب المهمة كمؤرخ المملكة المغربية والناطق الرسمي باسم القصر الملكي ثم والي جهة مكناس.

قصته أثارت فضولي إلى أبعد الحدود، حقيقة أنا لم أقرأها كاملة، هي نتف من مقالات عديدة. فقد أشار إليها ثم ناقشني ببعض أفكارها صديق.

ملخص القصة: رجع «اذربال» بطل القصة إلى بلدته بعد سنوات من الدراسة ليبدأ علاقة غرامية مع إحدى سيدات المدينة- والتي قصد بها المؤلف "السياسة"- وانتهى به الأمر أن تجرع شرابا سحريا ظنا منه أن

هذا الشراب سيحوله إلى طائر ليهرب برفقة حبيبته إلا أن الشراب حوله إلى حمار بيع في سوق الحمير إلى رجل جشع يحمل عليه الأثقال...

تنقل الحمار من مالك إلى آخر حتى وقع في يد صاحب سيرك أرغمه على خوض معركة مصيرية مع سبع من أجل كسب النقود، ليختار الحمار بعد ذلك الهروب مرة أخرى من أجل البحث عن طريقة ما تعيد إليه آدميته

كان حمار «حسن أوريد» خارقا للعادة، فهو كالبشر، بل وكالمتعلمين منهم، ولكنه في الوقت ذاته لا يستطيع النطق إلا عبر نهيق يؤذي السامعين، ويأبى أن يعاشر أتانا، ويؤكد لنفسه أنه فوق مرتبة الحيوان، إلا أن طبيعته الحيوانية تغلب عليه، فلا يجد غير السير مع قطعان الحمير.

كان حمار أوريد إنسانا، لكنه تحول إلى حمار عندما اغتصب ما ليس له، وحتى عندما عاد الحمار إلى هيئته البشرية الأصلية، بقي في نفسه شيء من حتى. قال الحمار يوما وهو ينظر في المرآة: نظرت فإذا أنا حمار كامل الأوصاف، لا أختلف عن الحمير إلا في شيء أضحى مصدر معاناتي هو قدرتي على التفكير، إذ كان الأمر سيهون لو حرمت التفكير وعشت حياة الحمير لا أختلف عنها في شيء.

كما تساءل: هل هان بي الأمر أن أعشق أتانا؟ هل طلقت وضعي الإنساني لأصبح حيوانا كامل الحيوانية؟

هل هو الإعلان عن الإفلاس والانغمار كلية في سلك الحيوانية أنا الذي قدرت يوما أن أنعتق من جلد الحمار ومهاوي الحيوانية؟ ليتني لم أنهق.

إذا قارنا بين سيرة حمار وسيرة حياة مؤلفها وجدنا التشابه واضحا جليا. فأذربال، إبن بوكود يوليوس، تربى في أحضان مدينته «اليلي»، قبل أن ينتقل إلى الحواضر الكبرى ليستكمل تكوينه وينال حظا وافرا من الفلسفة والمعارف اللاتينية ويحتك بكل أساليب الفكر بقرطاج وروما ليعود بعدها إلى بلاده وينخرط في الشأن العام لكن خلفيته الأكاديمية أخذت تصرفه إلى البحث عن الحقيقة ليقع في ارتكاب المحرم ويتحول إلى حمار.

هذا التحول، جعل هذه الشخصية تعيش وضعا مضطربا موزعا بين حالة إنسانية تستطيع أن تفكر ووضع حيواني لا يقدر فيه على البوح بما يموج ويدور في فكره، ليعيش مراحل متعددة ومليئة بالمخاطر قبل أن يعود إلى أصله.

كذلك بدأت حياة حسن أوريد في بلدته في الراشيدية ثم انتقل الى الدراسة في القصر الملكي في المدرسة المولوية بالرباط وأتم تعليمه حتى الحصول على الدكتوراه في العلوم السياسية وبدأ العمل في الإطار السياسي.

ومن أوجه الشبه أنهما وقعا في المحذور والمحرم والذي يعد في نظر المؤلف- ارتكاب المحرم- «السياسة» واغتصاب ما ليس من حقه. وأن الإثنين حاولا التحليق بعيدا عن الواقع.

الإثنان عاشا تمزق الهوية الحقيقية ما بين آدمية الحمار وأمازيغية «أوريد». أرادا البوح فما استطاعا إلا عبر نهيق مكروه يؤذي السامعين! كانت حيوانية الحمار تتغلب على ماضيه الإنساني وكذلك «أوريد».

كان الحمار إنسانا، لكنه تحول عندما اغتصب ما ليس له، وحسن أوريد تحول عندما أصبح رجل السلطة الأول في مدينة مكناس حيث انسلخ من جلباب العالم ليلبس عباءة المخزني، بل وتحول في يوم من الأيام من انسان يقارع الفكرة بالفكرة إلى جلاد يواجه الأفكار بالعصا.

هل نجح حمار «حسن أوريد» في تسلق المحرم واغتصاب ما ليس له؟ هل عاد الحمار إلى آدميته بعد صراعه مع الأسود إنسانا كما كان، وهل تخلص فعلا من حيوانيته؟ تجرع الشراب الذي ظنه سحريا والذي يمكن حسب اعتقاده أن يحوله الى طائر وحبيبته ليتجاوز كل ما لا يريد أو يطيق فإذا به يهوي به سحره إلى أرض الواقع حيوانا، بل حمارا ذا نهيق!

أراد الهروب من الرقابة والعبودية طلبا للحرية فإذا به يقع عبدا لحيوانيته قبل أن يصبح عبدا لسواه فتحول إلى مسخ لا هو بإنسان آدمي ولا هو بحيوان حقيقي!

أراد بعد ذلك أن ينطق بأفكاره فإذا بالصوت نهيق.

أراد أن يغتصب ما ليس له وإن يحتفظ رغما عن ذلك بإنسانيته فما استطاع.

وأنا أرى أن السبب كامن فيه- ضميره الذي لم تستطع مفاسد السلطة أن تميته أو تمسخه كما مسخت ظاهره.

ورغم ذلك هو لم يتخلص تماما من حيوانيته عندما عاد إلى بشريته، فهو كغيره من بني الإنسان، فالكثيرين منهم لا يختلفون عن هذا الحمار، وهم يقيسون الحياة فيما يملكون، ويجعلون غايتهم النيل من متعها والظفر بمتاعها.

* * *

دماؤنا المستباحة

نثور في ذهني أسئلة لم أجد ولن أجد لها أجوبة مقنعة. حتى أن ذاتي ستتمرد علي لو أني وجدت تلك الأجوبة. أسئلة أجدني أشعر بالاستهجان إذ أحتاج أن أطرحها كأنني أسأل، لما تأكل الأم وليدها لحظة وضعها له! أمة العرب، أمم الإسلام ويلكم ماذا دها العقول والقلوب؟!

لماذا دماء المسلمين مستباحة، لماذا نفوس بني يعرب رخيصة حتى على مجتمعاتها، على الحاكم والمحكوم؟! أينما تجد المذابح تكون للمسلمين. وإن سألت بيد من ذبحوا قيل بيد المسلمين.

عجبا، والله وأشد العجب! فهل ديننا السمح يدعو لذلك؟! هل نبي الإسلام جاء قتالا صلى الله عليه وسلم؟! وهل عدل الإله يطالب بذلك؟!

أفيقوا أمة الإسلام قبل فوات الأوان إن لم يكن قد

فات. ما الذي أدى إلى اختلال العقول، ما الذي أدى إلى خراب النفوس، ما الذي جعلكم قساة القلوب فجعلها كالحجارة بل أشد قسوة؟!

متى وكيف جفت ينابيع الرحمة فيكم، قسوتم على بعضكم البعض فانتقم الكون منكم، غاب التراحم فيما بينكم فغاب العدل وانزلقت الحرية من أياديكم كما ينزلق المزلاج على سفح جبل جليدي.

غاب التراحم، نحرتم العدل على مذابح السلطة، ففقدتم الحرية والكرامة وتحولت عوالمكم إلى غابات شرائعها تعافها حتى الحيوانات. خلقكم الرب عباداً وارتضيتم أن تكونوا عبيداً. رخصت أرواحكم عليكم ومن بعدها أصبح كل شيء غال. أصبحنا أمة كلنا فيها يتامى.

***

وطن بقسوة المحتل

كم هو مؤلم أن يتحول أجمل حلم في حياتك إلى كابوس، ليس في منامك وإنما في واقع يتجسد أمامك وتعانيه. نعيش حاياتنا ونحن نمني النفس بكل شيء جميل ننام لنصحو على أمل تحقيقه.

وعندما يتحقق وتراه وقد تجسد أمامك بكل ما فيه يتحول فجأة إلى كابوس، يخنق الذات كأنما أنت تغرق في بحر مالح أو يصعد بك إلى السماء أو تشرق بماء حمامك. لست أدري كيف يستطيع محب أن يفعل كل هذا بمن يحب. كيف ليد من المفروض أنها آمن يد هي ذاتها من يطبق على حنجرتك حتى الموت. كيف لحضن يفترض أنه أحن حضن عليك في الوجود.

وطنك الحقيقي، أمانك الذي تسلمه أغلى ماتملك، مقر نفسك وروحك. كيف لهذا الحضن أن يطبق أضلاعك على رئتيك حتي تلفظ أنفاسك وهو يراقبك.

كيف لمن يفترض به أن يحمل معك شيئا من همومك

يثقل عليك بالكون كله حتى تسحق أمام ناظريه، يراك تتساوى والأرض ولا يمد لك يده.
هل بعد كل هذا يمكنك أن تثق به أو تأمنه على نفسك أو تمنحه من ذاتك. كيف بعد كل ذلك يمكنك أنت تقول هذا وطني الذي ليس لي وطن سواه. فأي وطن هذا؟! إنه يتحول إلى كيان محتل كل همه استعمارك!

***

أريدُ التحليقَ معكم كالنسور

كم تمنيت أن أكون كالنسور المحلقة، كم حلمت بذلك في مناماتي، كم تخيلت ذلك، وها أنا أحلق بينكم وأستمتع بذلك وأشعر بسعادة لا توازيها سعادة.
انتم وخيالاتكم وأماكنكم وكل ما يجمعني بكم في فضاء إنساني جميل متميز ملون بكل أطياف المحبة والود وكل ألوان الكلام الراقي والعبارات اللطيفة، كل ذلك واقع حقيقي وإن اعتبره البعض مجرد مكان افتراضي.
إن كل ما يؤثر في الإنسان، في قلبه، في روحه، في أعماق ذاته. إن كل ما يسعده، يضفي البهجة على حياته ويغني ويثري وجدانه لهو الواقع الحقيقي، لهو الجمال الذي تنثره الحياة فينا.
شكرا لكم أحبتي أن قبلتموني صديقة لكم وأعطيتموني الفرصة للتواصل معكم وأن أكون ضيفة يومية على عيونكم وفي قلوبكم وصفحاتكم. أنا حقيقة ممتنة لكم.

فأنتم مصدر إلهامي وأنتم شغفي.. أحبتي.

***

نحن بشـر

أنا وأنت وهي وهم جميعنا بشر والمفرد منا إنسان. نشترك في كثير من مشاعرنا، آلامنا، معاناتنا، مخاوفنا وحتى هواجسنا. لسنا مجرد أسماء أو صور.

لسنا لوحات معلقة على جدار حتى وإن اتخذ الواحد منا اسما مستعارا أو اختبأ خلف لوحة أو اسم من الأسماء. كل ذلك لن يخفي حقيقة أي منا تمام الإخفاء، أقله ستظهر حقيقة الإنسان أمام ذاته وبكاملها وإن لو تكن كاملة تامة أمام الآخرين، عندها ماذا سيفيد التخفي.

أنت أو أنا أو هي أو هو سيجد نفسه في مواجهة نفسه وستختفي كل المتاريس التي وضعت، وكلما كتبت أكثر وكلما علقت على كتابات الغير أكثر كلما ظهر معدنك الحقيقي.

مهما لونت شخصيتك باسم ما، بصورة ما، كل ذلك لن يغير من حقيقتك بل سيظرها ويكمل شرح حقيقتك أكثر وأكثر.

وربما أن أجمل ما في هذا الجدار- الفيس بوك- أنه

مهما حاول الواحد منا أن يتجمل بالكذب أو أن يتخفى وراء عدة أقنعة إلا أنها تبقى كستارة شفافة يبدو من خلفها كما هو، فهي إن لم تكشف ذاته كفرد إلا أنها تكشف الذات الجماعية وترسمها بدقة متناهية وما نحن إلا أجزاء هذه الذات الكلية.

قد يستتر شخص ما خلف صورة ما لسبب من الأسباب ولكنه بالتأكيد لن يخفي حقيقة ذاته. ما أطلبه منكم وما أطالب به نفسي كذلك- وقد فعلتها أكثر من مرة- أن يعود الواحد منا إلى بداياته، إلى أولى كتاباته واقتباساته ليراجعها، عندها سيجد مرآة تريه من هو!

يراجع الأسماء التي اتخذها والصور التي تمرس خلفها والردود التي رد بها على غيره والتعليقات التي علق بها ليتعرف على مكنوناته التي ربما كان هو يجهلها.

عندما أكتب، عندما أعلق، وعندما أرد على أحدهم أدرك تمام الإدراك أنني أتحدث إلى إنسان من لحم ودم، إلى روح، إلى نفس تواقة إلى التواصل ولو عن بعد.

ولو كان هو صادقا وانا كذلك صادقة لنشأت صداقة حقيقية وإن كانت في هذا الفضاء الكوني الواسع، ذلك أن صداقة الفكر والمشاعر والأخذ والرد بكل صراحة وصدق لهي تؤثر كالصداقات التي تنشأ في الواقع المادي المعاش سواء بسواء ولكن هناك من يستخف بهذا المجال التفاعلي الذي يخترق أعماق النفوس وفي كثير من الأحيان يعيد برمجتها، وإني لأرجو لنا جميعا برمجة إيجابة ومفعمة بالأمل والمحبة والود.

وأحب أن أنوه هنا إلى أن الصداقة هذه لا تعني كما قد يتبادر إلى أذهان بعض ضعاف النفوس أنها عشق وحب وهيام بشخصه الكريم. إن كتاباتنا عن الحب ومشاعره إنما هو من قبيل الفضفضة الإنسانية لمشاعر إنسانية بحتة تعتمل في نفس الكاتب وهي لا تتصل من قريب أو بعيد بشخص ما..

***

شيء من الإدمان

أكذب على نفسي قبل أن أكذب على الآخرين إذ أقول أنني لم أتأثر بحدث إلكتروني بامتياز.

منذ أن فتحت لي صفحة على الشبكة العنكبوتية تغيرت حياتي جزئيا بحيث لا يذكر مثل هذا التغير. إلا أنه مع الأيام زاد تعلقي بصداقات كان مبعثها الأساسي الثقافة وتبادل الآراء والمواقف الفكرية.

بعد أن كانت علاقتي هي غالبا بالكتاب. كتابا مهما احتوى من زاد ثقافي ألا أنه في النهاية أصم أبكم لا يشفي غليلا ولا يبل ريق محاور.

وفجأة يظهر لك أناس تتصور أنهم مثلك من لحم ودم، يتنفسون، يشعرون، يغضبون، يوافقونك الرأي وقد يخالفون.

تشعر بالسعادة أن أمثالهم حقائق تستطيع الوصول إليهم مهما بعدت جغرافيتك عنهم واختلف بعض زمنك عن

زمنهم.
هنا يبدأ التعلق النفسي والعقلي بهولاء. وتتحول زيارات النت إلى عادة ثم إلى إدمان وبعد ذلك إلى مرض كأي مرض إدماني في أسوأ حالاته.
وهنا تحدث المفاجأة تختفي بعض هذه الشخصيات إلى الأبد. وبعضها يظهر ويختفي. وبعضها يتقدم إليك لتنعيه في موته وهكذا.
ولكن الضربة القاسمة تأتيك عندما تعلم علم اليقين أن معظم أصدقائك هم مجرد الكترونات لا أكثر. تزورك وتغيب عنك بنقرة واحدة على كبسة واحدة من جهازك الإلكتروني. فلا لحم يمزق ولا دم يسفح. انتقلوا إلى رحمة الله.
وقد تتلقى ضربة قاصمة أخرى حين تعلم أن هؤلاء ليسوا مجرد أوهام بل هم أشباح أو ظلال لكائن واحد يتلاعب بهم كيف يشاء.
لعبة بدأها ولا ندري متى ينهيها. ماهي أسبابه، لماذا فعلها، ماهي مقاصده، الله وحده أعلم. نيته حسنة أو غير ذلك لا أحد يعلم.
الأمر بحد ذاته مجرد تخمين لما لهذه الشخصيات من هوية واحدة مشتركة. وربما تكون مجرد صدفة محضة وظن، وإن بعض الظن إثم.
ليس هذا هو لب الموضوع وإنما هو السؤال: طالما أننا نعرف مسبقا أن الأمر ليس أكثر من عالم افتراضي فلماذا نتعلق به وبأشخاصه.

والجواب عندي: إن هناك من البشر من لهم قلوب وأفئدة كأفئدة الطير تشف حتى تكاد تبدي ما بداخلها. نتعلق بسهولة بكل ما هو جميل لطيف خير. نتعلق به ولكنها لا تستطيع أن تقلع بذات السهولة التي بدأت بها. مشكلتها أنها حافظت على فطرتها سليمة، نقية لم تتلوث. حياة هؤلاء تتحول الى جحيم عند فقدهم من تعلقوا بهم. إلا أن عزاءهم أن نفوسهم خصبة ستنتج ما تقتات عليه نفوس الآخرين آمادا طويلة.

***

قصاصة من الشبكة العنكبوتة

هي قصاصة من قصة، ولكني سأعتبرها قصة..
هي قصة من القصص اللانهائية العدد على شبكة التواصل.
قصة تحكي واقعاً يتكرر في ظل عالم افتراضي يسبح في فضاءات غير ملموسة، إلا أنها حياة بكل ما في كلمة- حياة- من معنى. تنقصها مادية الجسد نعم، ولكنها هي حالة فيه، متغلغلة في أعماقه. وقد تعيشها الروح كما أية حياة واقعية وربما بفاعلية أشد وأعمق.
كم أتمنى أن ألملم بعضا من هذه القصص وأصنع منها حدائق أو مقاهي أو منتزهات للأحباب والأصحاب يسمرون فيها ويتلذذون بفواكهها ويسمعون موسيقاها. ففيها موسيقى أجمل من موسيقى بتهوفن وحتى موسيقى القرب، ومهمتنا الاختيار. وكم هو صعب بحثنا في دبق خيوط العنكبوت ووهنها.

***

أصدقاءُ النِت

لا عزاء لأصدقاء من ورق. لا عزاء بفقدان أحبة تعودنا وجودهم في حياتنا ثم اختفوا. لا عزاء لنا بفقدان برامج مكوناتها أجزاء من الذرة- الكترونيات- فعلا لا عزاء.

هي حياة، ولا حياة. من تعلق بها تعلق بأحبال واهية بين الأرض والسماء تاه .. لا هو إنسي من البشر ولا هو جان ولا حصل أي مقام كان.

يتبدى لي ويتضح يوما بعد يوم أن صداقات مواقع التواصل الاجتماعي إن لم تدعم بالحضور الحقيقي للصديق فهي وهم. وجمعها أوهام تحلق فوق الرءوس. بكبسة زر تحضر وبأخرى تنتهي وكأنما شيء لم يكن. ليست المشكلة في هذه الأوهام ولا في الأداة. المشكلة فينا نحن عندما ندمنها ونراها فعلا حياة.

من هم على الطرف الآخر مثلنا لهم قلوب، لهم نفوس ولهم طقوسهم. لهم آمالهم ولهم آلامهم. مشكلتنا أننا نلغي الحقائق ونتعلق بالصور.

نترك المضمون ونتمسك بالإطار تمسكنا بأرواحنا. الصورة هي البريد ولا ألوم من اعتقد جازما بأهميتها. الصورة بريد المضمون وإطاره وإلا تساقط وانتهى. لا بد من قبول الصورة أولا وفي العادة قلة هم من يفضون الغلاف دون التمعن فيه.

أين العيب إذا في كل هذا ؟ العيب في العلاقة ذاتها. وهذا يجعلني أعود إلى مقولتي السابقة: الحديث دون الحضور غياب.

والحضور للصورة دون المضمون قد يقبل منطقا ولكنه يرفض واقعا. والمضمون يفتقر إلى صورته، إلى إطار يلملم شعثه.

فرق كبير بين الشاهد والشهيد. الشاهد يستلزم عالم الإمكان، عالم العقل، يستلزم الدليل وبناء البراهين. الشاهد عقل كله.

والشهيد هو الإساس المغروس في دنيا الواقع. هو عالم الحق. هو ما نلمسه باليد ونسمعه بالأذن ونراه بالعين. هو ما يسكننا من خلال حواسنا كلها. هو مصداقا لقوله تعالى:

«ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا».

فمن أراد أن يصادق أحدا لا بد من حالتي الشاهد والشهيد وإلا سنبقى نعيش الوهم ونبقى أسيريه. سنبقى نعاني من الشك والخوف. ستبقى الريبة بحرنا الذي نغوص فيه. سنعاني انعدام الثقة ونعيش أسوأ أيامنا.

* * *

مَلَاكَان

ملاكان نائمان لا توقظهما. دعهما في فردوسهما الأعلى.
دعهما لأحلام ليست كالأحلام، وقف على أعتاب حلمهما لتحرس السرير والوسادة. لتحرس قلبين غفت منهما العيون والقلب صاح يقظ.
صورهما وضع الصورة في إطار مقدس قدسي التكوين.
وزينه من زهر الجنة، من رياحينها،
من ياسمين لم تمسه يد البشر. طفلان نائمان، دعهما، لا توقظهما، ودع الحب يصلي من أجلهما، ينثر المنثور حولهما. دعهما في سكرة الحب، في خيالات الهيام ينعمان. دعهما لا توقظ الأحلام، فلا تدري حينها ما كان ولا ماهو كائن ولا ماسيكون. ولا تعلم ما ستأتي به الأيام.
ملكين وجنة الرحمن خلفهما وبيته الحرام تحرسهما من كل هامة وشيطان. تحرسهما عناية من لا يغفل ولا

ينام. وبعد كل ذلك يسألها متى أحببتني ولم يمضِ على حبنا بعد عام.
أحببتك بني منذ أول نظرة منذ وقع بصري عليك، والكعبة خلفك ونور الحق بين بديك.

***

كنا صغاراً

كنا صغاراً، نملأ المنزل ضجيجاً وشقاوة حتى مغيب الشمس، إلى أن نسمع صوت جدتي تنادينا بأسمائنا واحداً واحدا كأننا في فصل دراسي، حضروا أنفسكم للنوم.
فكأنما كانت تنادينا لندخل الجنة. نلبس «بيجاماتنا» ونتوجه إلى غرفة النوم بكل حماس وشوق المحب للقاء محبوبة.
نجدها وقد جهزت الفراش والمساند وأطفأت الكهرباء وأشعلت مصباحا صغيرا وضعته في مشكاته- كوة في الحائط- ثم جلست مسندة ظهرها بالوسائد، أصغرنا يجلس في حضنها، أما نحن الأكبر سنا فنتحلق من حولها.
تبدأ بسرد الحكاية وهي تحاول قدر الإمكان تمثيل القصة بيديها وملامح وجهها وتنغيم صوتها، نتطلع اليها وكأن مجموعة من الممثلين أمامنا على المسرح، نلاحق أية

حركة تقوم بها.
حتى إذا ما اقتربت من نهاية القصة نكون نحن قد اقتربنا من جسمها زاحفين نحوها وقد أخذت رؤوسنا بالترنح وعيوننا تكاد تغلق. ثم نستسلم لنوم عميق. لتبدأ رحلتها بعد ذلك بحمل كل منا إلى فراشه وهي لا تعلم أننا كنا نحلم بها وبقصصها وأننا لا زلنا نحلم. ماتت جدتنا ولم تمت ملامحها من مخيلتنا ولا مات حبها في قلوبنا. بقيت ذكراها من أجمل ذكريات الطفولة والصبا. رحمك الله جدتي وأفسح لك في جنات الخلد كما أفسحت لنا قلبك الذي كان بوسع الكون بالنسبة لنا.

***

الحياة ستنتصر

الحياة ستنتصر ولو بأقل أقل شروطها..
وكذا الخير والجمال والحب وكل القيم التي تحاولون دفنها ستشق يوما ما طريقها إلى الوجود رغما عن أنوفكم المزكومة بالشر والقبح والكره..

***

محور اهتمام

دائماً هناك شيء ما في حياة كل منا هو مركز اهتمامه، محوره الذي يدور حوله، نقطة انطلاقه إلى الحياة بل ربما هو سر الحياة بالنسبة إليه، مهما ابتعد عنه سرعان ما يعود إليه.

هو الينبوع الذي يصدر عنه ويرويه في آن معا، وما عداه إنما هو أطياف تطول أو تقصر، تتضخم أو تتضاءل.

ربما تستغربون أن هذ الذي أتحدث عنه هو "العلم" بالنسبة لي، ومن ثم كل ظلاله من معارف.

لا يدهشني في الكون إلا عالم اكتشف جانبا من جوانب هذا العلم أو ذاك. ولا يغريني إلا اكتشاف جديد، ولا يطربني إلا وقع خطوات منهج علمي تتهادى في سمعي كنغمات كمنجة أو ساكسفون.

مزامير العلماء لها ذات قداسة مزامير داود. وتراتيلهم العلمية كتراتيل المؤمنين. ورسومات المهندسين لوحات إبداع كالطبيعة الجميلة من حولنا سواء بسواء. العلم هو السحر الحلال الوحيد الذي أومن بوجوده في دنيانا وغيره شعوذة مشعوذين.

***

أحياناً

أحداث جد بسيطة تمنحنا سعادة لا تقدر بثمن.

ما أجمل أن تجرب شيئاً جديداً! تستكشفه عن قرب، تعايشه بشغف، تندمج فيه برغبة، وتمضي به بكل الحب، حتى لو كان مجرد طريق جديد لم تسلكه من قبل اليوم وبعد أن غادرت النادي الرياضي أخذت طريقاً آخر غير الذي اعتدت أن أمر به.

لم يكن شارعا مسفلتاً بل رملة بيضاء زادتها أشعة الشمس الساطعة بريقا وضياء.

كانت كبسمة طفل عريضة عندما يصحو من نومه مرتاحا، في سريره المدثر بالبياض.

سرت في الطريق مسرعة تسابق قدمي أختها وجسمي يتراقص كما قطة تحاول اللحاق بصيدها المأمول. أركض ثم أثب فوق الحجارة المكومة من شدة نشوتي.

مررت بجانب مدرسة غادرها طلابها للتو، أطفالاً كالزهور يتراكضون، يلهون بكل ما يصادفهم حتى الحجارة. حقائبهم التي يحملونها على ظهورهم تحضن أثمن غلالهم. داعبت بعضهم فزادت وجوههم إشراقا فوق إشراقها، والتمعت عيونهم ببريق يأخذ بتلابيب الفؤاد. قابلت جارة لم أرها منذ مدة وكان لقاء محبة ومودة. أحداث بسيطة متلاحقة في أقل من نصف ساعة ولكنها كانت لنفسي قمة في السعادة.

* * *

الزمن مرة أخرى

في خاطرة سابقة لي قلت: لو بحثنا في معنى الحاضر- الآن- سنجد أنه يعني صفرا على خط الزمن.

ومن أقوال المسيري في الزمن وتوازي المعنى ذاته الذي قصدته: «اللحظة الراهنة نقطة يلتقي فيها الماضي بالمستقبل».

فالحاضر كما يعني في المقولتين هو نهاية الماضي رغم أنه من نتائجه. وهو كذلك بداية تشكل المستقبل ونافذة عليه يمكن أن نستشرفه منها.

اللحظة الراهنة هي نتيجة حتمية لخياراتنا ومواقفنا وأفعالنا السابقة. وخياراتنا تستند حتما على قناعاتنا ومبادئنا.

إلا أن اللحظة الراهنة هي وحدها لوحة القفز إلى التغيير من خلال خيارات جديدة وأفكار مبتكرة. فمن أراد تغييرا في حياته لابد له أن يغير قناعاته والأسس التي

يعتمدها.، فتتغير خياراته وبذلك تتغير حياته.
وكلما كان تغيير الأسس أعمق كان التغيير في الحياة أشمل ولكن الأهم هنا بأي المبادئ نتمسك وأيها نلقي بها في سلة المهملات؟
خبرة الحياة تعلمنا الكثير، والثقافة لها دور كبير. والدين فيصل. ولكن تذكر أن كل ما تغرسه أنت بنفسك من قيم ستكون هي لوحة اقلاعك إلى المستقبل الذي تأمله. وخياراتك- الآن- هي الأهم.

***

هكذا أرى الزمن

لو بحثنا في معنى الحاضر «الآن» فهو على خط الزمن يساوي صفرا وما قبله ماض وما بعده لم يأت بعد.
ولكن انظر إلى أهمية هذا الصفر في حياتك وما يمكن أن يعنيه! منه يبدأ المستقبل، وفيه يكون التغيير وبه وحده أنت حقا تعيش.
ومع ذلك هو لحظي لا يدوم، قد تراوغه ولكنه دوما ينتصر. ما قبله فات وانتهى وإن سجلته ألف تسجيل، حتى وإن حفظته في تلافيف دماغك، فهو إلى الغياب سائر صائر.
هو حاضر وما يأتي بعده لا يكون إلا نتيجة من نتائجه وبنيان لابد متأسس عليه، وماضيك أن هو إلا ذكراه.
فالحاضر جوادك الذي إن أحسنت قيادته وصل بك إلى مرادك. هكذا علمتني الحياة.

***

ليسَ غروراً

ليس غروراً، ولكني بذاتي اكتفيت. علمتني الحياة بعد ستين عاما أن من لم يتخذ ذاته وطنا، لا وطن له وإن كان على أرض آبائه وأجداده، وبين أهله وأصحابه وأحبابه.

كنت وطنا لإنسانية الإنسان. كنت وطنا لكل من أحب. كنت وطنا لأي فرد. والآن أنا أطرد من وطني كل إنسان. سأطل عليهم من علياء ذاتي، ولن أسمح بعد اليوم لأحد أن يستوطن هذه الذات. سأطل عليهم من سماواتي حيت لا سقف يحد ولا غيم يسد ولا يطالني إنسان.

* * *

مواقف طريفة

كنت في بيروت، دخلت مكتبة لأمضي فيها وقتاً محدداً ريثما يتسنى لي مقابلة أستاذي، فإذا بامرأة تجلس وراء مكتبها نفرت من منظرها،

ويبدو أن ذلك ظهر على ملامح وجهي، ولم يكن ذلك إلا لشكلها الغريب الذي تفاجأت به- استغفرت ربي، بعدها ربما مئات المرات، فكلنا خلق الله، وليس لنا يد ولا فضل في ذلك- طلبت منها أن ترشدني إلى مكان مجموعة من الكتب كي أختار منها ما قد أراه مفيدا لي في بحثي.

ناولتني الكتب وطلبت مني أن أجلس إلى جانب مكتبها وبادرتي ودون أية مقدمات قائلة: أنت لست جميلة.

تفاجأت من قولها وبكل عفوية أجبتها، بل أنا جميلة بشحمي ولحمي.

ابتسمت وأكملت، لا، ليس فيك مسحة من جمال. عندها

تنبهت لما قصدته وابتسمت وقلت لها: سيدتي ليس الجمال جمال الشكل بل هو جمال الروح والنفس، ابتسامتك هذه في وجهي لهي الجمال بعينه. عندها نظرت إلي بحنو وامتنان وقالت:

الآن أنت جميلة حقاً...

***

العراة...

تأملوا هذا الموقف... ثم أجيبوني على التساؤل الذي سأطرحه فيما بعد.

كان في حضنها، رأسه تحت ذقنها- ابن السابعة- عندما سألته:

هل نتصل بماما ونخبرها أنك قد استحممت جيدا ولم يدخل الشامبو أو الصابون في عينك وأنك كنت سعيدا تلعب في البانيو.

تصوروا ماذا كان جوابه «تيتا انا بحبك وعمري ما تحممت هيك، بس انا ما بدي أحكي لأمي أحسن بعدين تزعل. أنا ما بدي إياها تدايق».

والسؤال: ترى نحن عندما نكبر بالسن هل يزيد ما وهبنا الله إياه من عقل أم أن معلوماتنا هي فقط التي تزيد؟! ونحن صغار ترتبط العاطفة بالتعقل فنحاول ألا

نؤذي من نحب ولكن عندما نكبر ونناطح الواقعية والحيادية والموضوعية...
وكل هذه المفردات تغلبنا ونبقى عراة بلا إنسانيتنا! ليتنا نعود لنتدثر بهذا الثوب الذي يراه الكثيرون منا أنه بال ورث، قديم.

***

جمال... مختلف

شخصياً؛ أنا أعشق قيمة القيم، إنها «الجمال».
فالحق بالنسبة لي جمال مطلق، والخير جمال الفعل والقول. جمال الشكل نسبي وكذلك جمال الكلمة وإنجازها أو ترجمتها فعلا.
كل جمال مقدر لدي. ولكنني صادفت جمالا يختلف قليلا عما اعتدت أن أهتم به أو أود رؤيته والتمتع به.
إنه جمال إرادة الإنسان عندما يصر على أنه مهما كان وأيا كان، اكتملت أعضاؤه أم نقصت، نظر إليه الآخرون نظرة شفقة أو نظرة توحي بضعف بصيرة الناظر. هكذا إنسان يصر على أن يؤكد لنا أن الجمال جمال العقل والفعل والعطاء رغم كل شيء. جمال نادر قلما نصادفه إلا عند ذوي النفوس العظيمة.

***

لوحة أغرتني بالكتابة

لوحة رأيتها على موقع التواصل- فيس بوك- ما لفتني أنها تمثل رأس حصان ولكن بمشاعر إنسان.

ساهما وكأنما هو يفكر في أمر ما، جادا في تفكيره، فالأذنين منتصبتين وكذلك شعر الجبهة. والعين الظاهرة في اللوحة تظهر صاحبها سارحا حزينا نظرته منكسرة كما رأسه إلى أسفل.

كما يبدو الضيق والألم قد استحكما به، فمنخريه متسعان كأنما هو يزفر ضيقه خارج الجسد. وأوداجه منتفخة وفمه مغلق ولكن ليس براحة فشفته السفلى تبدو وكأنها تورمت قليلا،

وبالمجمل رأسه قريبا من صدره، من أعلى فخديه. تحيطه الظلمة وأكثرها من فوق ظهره، وكأنما الفنان الذي رسمه يريد أن يخبرنا أن هذا الكائن يحمل هما

عظيما في ثقلة وكيفه ونوعه.
وهو في نظري جواد، جواد عربي أصيل يحمل هم البلاد والعباد والتاريخ والحاضر والمستقبل.

***

ماذا ينتظرنا غدًا؟

مهما كان الماضي جميلاً ومشرقاً ويبدو لنا أنه حمل معه كثيراً من آمالنا التي لم تتحقق إلا أن التقدم واجب.
وبالرغم من أننا لانعلم ما ينتظرنا في الغد إلا أنه يمكننا التخمين، فالمستقبل وليد اليوم، وليد قراراتنا الآنية، هو ثمرة الآن مهما كان الماضي غنياً ذا فاعلية ومثالي إلا أنه لا يغنيك عن قرار تنفذه الآن وفي لحظتك هذه فلا تلوِ عنقك نحو الغروب مهما كان جميلاً.
وليس دائما القرار العقلاني والمنطقي هو الأصح والأفضل بل قد يكون الاستماع إلى الذات ومطالبها واحتياجاتها هو الأصح والأسلم وهو الأجدى والأنفع.
إن الأهداف والغايات العظمى لا يخلقها العقل وقد لا يرتضيها لما تحمل معها الكثير من المعاناة والمتاعب التي قد يتجنبها كل عاقل حريص على نفسه. عقولنا تنظم سبلنا إلى الأهداف ولكن لا توجدها.

انظر إلى كل تقدم أحرزته البشرية لم تكن إلا بعض أهداف مجنونة للمبدعين هم مجانين في عيون الناس، وهم كذلك، ولو حسبتها بالعقل ومنطقه ما أحرزت شيئا من التقدم الإبداعي، فكل خلق جديد في الفكر والفن والعلم مرفوض مرفوض حتى تستقر رجرجته في العقول والنفوس ويأخذ مكانه في واقع الناس.

لولا هذه النفوس التي تحمل بذور ما يسمى بـ «الجنون» ما كان تطور ولا إبداع ولا أشرقت الشمس على محدث جديد.

كل شروق جديد يبث إلى الكون أشعة جديدة من الأمل والحب والسعادة تخترق القلوب والعقول وتستقر في النفوس لتفعل فعلها الإيجابي ودورنا نحن البشر التعرض لها وتركها تخترقنا دون مقاومة.

وندع الغروب يحمل معه وفي ظلمائه كل الهموم والخيبات والآلام ندفنها فيه فمهما حصل كن كشروق الشمس يتجدد كل يوم.

* * *

صوت يُلامسُ شِغافَ القلب وأعمق

عند سماعي لصوت الشيخ محمد صديق المنشاوي- رحمه الله- تتوارد الخواطر على مخيلتي وترتسم في ذهني كأنها كلمات مكتوبة من نور.

ما إن يبدأ في التلاوة حتى تتحول الكلمات في سمعي إلى موسيقى فأشدو معه طربا لكلمات الله، ويذوب القلب عشقا ووجدا لجمال نور ينبع من مصدره العظيم. هي كلمات الله تتلى قرآنا لمن ألقى السمع وهو شهيد.

إنها كلمات القرآن التي قال الله سبحانه فيها « قل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمتل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا».

رباه ما أجمله من صوت خلقته وأنعمت علينا به، يتلو آياتك ويتغنى بها كما البلابل على الغصون.

صوت أكاد أرى من خلاله ملائكة الرحمن تتنزل بالآيات تباعا كأنهم قطرات الماء على صحراء جرداء فتربو

حبات رملتها وتنشق عن ربيع مزهر بكل أنواع الزهور، يكاد عطرها يتخلل صدري وأشعر بارتياح لا مثيل له. الله، الله...
لا أتمالك نفسي فأرددها كلما سكت يلتقط أنفاسه لتتصاعد ما أن يعاود القراءة- مع كلماته صوراً تذيب القلب شوقا لجنات الأرض والسماء، جنة القرآن في الدنيا وجنات النعيم. الله، الله...
ما أعظمك من إله كريم!. أبدعت القرآن وجعلت لنا فيه متعة، وبتلاوته وسماعه أجرا وأبدعت لنا من خلقك أصواتا هي كمزامير داوود.فلك الحمد يا رب كما يليق بجلال وجهك يا إلهي وإله العالمين.

***

كيف نكتسب العظمة

إذا أردت أن تكون عظيماً فابدأ بتقليد العظماء، أتقن تقليدهم، تعلم منهم، حاول جاهداً أن تسبر أغوارهم، تكتشف أسرارهم، ثم تجاوزهم.

إياك ثم إياك أن تبقى في دائرة التقليد وإلا فإنك ستتحول إلى مجرد ببغاء لا عقل له. واعتبر أن فترة التقليد هي مجرد فترة تدريب لا أكثر.

***

الصورة والحقيقة

للأسف، كم من مرة اكتشفت أن صورة ما أجمل ألف مرة من حقيقة صاحبها... تسمع عن إنسان ما، تقرأ له، ترى لوحاته التي رسمها، المنحوتات التي أنجزها بإزميله، كتبه ومؤلفاته، أعماله ومنتجاته.

تعجب بكل ذلك، تتمنى أن تتعرف على من أنتج شيئا من هذا، تتمنى أن تحظى بلقاء ذاك الجمال وجها لوجه. تعطيه فرصة ليقدم لك نفسه، تتعامل معه، تعامله، تتقدم نحو أعماقه، تصطدم، تصدم ببعض من القبح أو أكثر، وتجد ان القليل القليل من هؤلاء من تتطابق حقيقته مع ما تتوقعه نتيجة صورته تلك.

***

بدايات الشروق ونهايات الغروب

في فجر الصباح تكون المصابيح مضاءة وكذلك في بداية الغروب.

بدايات الشروق ونهايات الغروب متشابهة إلى الدرجة التي لن تفرق بينهما في لحظة ما. عند مشاهدتك للقاء الأحبة تكاد لا تعلم هل الحبيب قادم أم مغادر، اختلاط الدموع بالإبتسامات، دموع الفرح باللقاء أم هي دموع الفراق.

ابتسامات الترحيب أم ابتسامات الأمل. في لحظة ميلاد نفس جديدة تكون آلام الوضع وفي لحظة مغادرة النفس لجسدها تكون آلام النزاع. كثيرة هي اللحظات التي تتشابه ظاهريا ولكنها تختلف اختلافا تاما في حقائقها ومضامينها.

***

تشابه الحياة والموت

كم يتشابهان، شروق الشمس وغروبها ولكنهما في نفوسنا يختلفان.
وكم تختلف الحياة عن الموت، ولكنهما عند البعض متشابهان.
كم نتشابه الدقائق والأيام ولكن الأعمار تختلف فيما بيننا.
وكم نشترك كبشر في كثير من الصفات، لكن المميزون قلة.
وجميعنا يعاني إلا أن معاناة البعض تزهر وردا وريحانا.
والكل لابد يموت لكن القلة منا يترك خلفه وليدا للخلود.

***

الحُب... أم الاحترام؟

ترى أيهما أهم: الحب أم الاحترام؟
وأجيب كلاهما ولكن دون شكليات لا لزوم لها. أعني هنا عادات اجتماعية لا ترتضيها نفسي يوما ولا استساغتها.
كنت صبية يافعة عندما وقفت مقابلة قريبة لي لأسلم عليها وأرحب بقدومها، فإذا بها ترفع يدها حتى فمي لأقبلها، نظرت إليها وإلى من حولي- فقد كانت عادة تقبيل يد كبار العائلة شعيرة مقدسة- تصورت نفسي لحظتها أنني قد تحولت إلى لبؤة أو بالأحرى نمرة كشرت عن أنيابها استعداداً للانقضاض على هذه المخلوقة.
أنزلت يدها بقوة وسلمت عليها ثم تركتها ومضيت، لم أتبين الكلمات التي لاحقتني وقتها، أصوات تصرخ بكلام غير مفهوم لتداخل الألفاظ بعضها ببعض ولكنني أدركت

أنه كان توبيخا وانفعالات غضب.
ترى ألا يكفي هؤلاء الكبار حب صادق من صغارهم ولهفة اللقاء والسعادة التي ترتسم على محياهم، قبلة على الخد أو الجبين؟!
عندما جاء دوري لأكون أنا الأكبر بالنسبة لأولادي وأحفادي ومن هم في حكمهم من الأهل والأقارب رفضت أن يمارس أي منهم تلك الطقوس والشعائر الشكلية الفارغة اتجاهي، وجعلت ترحيبي بهم فرحة أطبعها قبلة على كتف الواحد منهم- فهو المكان الأقرب للقلب- ولأنهم جميعا أطول مني وإلا لقبلت رؤوسهم.
(أقصد أبنائي أما الأحفاد فأرفع من أستطيع رفعه منهم إلى صدري).

***

مثاليات...

طوال عمري وأنا على اقتناع تام وإيمان راسخ بأن العدل أساس الملك، وأن الرحمة أساس السلطان، وأن العفو من شيم العظماء...

إلى آخر هذه المقولات التي يعتبرها معظم الناس مجرد مثاليات متعالية لم ولن تهبط إلى دنيا البشر. وأن العكس هو الصحيح والأجدى في حياتهم.

فكم تغنى الشعراء وكتبت المقالات مدحاً لبعضهم، وكم خطب الخطباء على منابرهم في أهمية الإمام المستبد العادل- رغم التناقض- وأن الشعوب بحاجة لمن يقوم اعوجاجها، وأن العصا لمن عصى.

فأين أولئك من رسول الله صل الله عليه وسلم، الذي قال فيه ربه: «...عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم». و "لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر....».

وأين هم من عمر ابن الخطاب الذي قيل فيه: «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر». وأين هم من عمر ابن عبد العزيز الذي قيل له: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تمردت وساءت أخلاقها، ولا يقومها إلا السوط! فقال: كذبتم، فإنه يقومها العدل والحق. صدقت يا أمير المؤمنين.

* * *

نيرانُ العُنف البشري

مؤكد أن كلا منا مهما كان عمره قد جرب لسعة النار من أي مصدر من مصادرها.

أحس ألمها وشعر بتلك الحرقة النفسية العميقة والمعاناة المريرة مهما كانت تجربته مع النار بسيطة.

فلسعة النار والاحتراق بها ليس كأي معاناة أخرى، وهي المعاناة الجسدية التي كثيرا ما تترك أعمق الآثار النفسية شدة وإيلاما، إن حرقة مشاعري ومدى معاناتي من آلام بعض المواقف والظروف والتجارب الإنسانية تجعلني كمن يلقى وهو حي في نار السموم.

لهذا السبب فقط نادرا ما أتناول تلك المواضيع بالتحليل أو المعالجة إذ يصعب علي الأمر كما يصعب على من يحاول هو ذاته وبمحض إرادته وبكامل وعيه أن يلقي بنفسه في نار تتلوى رغبة في حرق كل ما تصل اليه.

قتل الأطفال الأبرياء، تجويع البشر، تعذيب الإنسان والحيوان، تقطيعهم أشلاء، كل مظاهر العنف الجسدي

والنفسي التي تمارس بحق كل ذي روح ونفس. كل ذلك وأبسط إنما هو بالنسبة لي نار أتجنب إلقاء نفسي فيها..

***

البشر... والإنسانية

البشر خلق من خلق الله، والإنسانية قيمة مضافة إلى هذا الكائن، يأخذ بها من يريد ويتركها من يشاء أن يتركها.

الإنسانية قيمة مضافة لهذا الكائن البشري، وهو بهذا تميز عن باقي الكائنات. والإنسانية بحد ذاتها هي مبادئ وقيم ومعايير يقيس بها الإنسان أقواله وأفعاله ونواياه.

أساسها أو أرضيتها التي تتبت فيها هي الوعي.

والوعي عند الإنسان بالذات ينطلق من عقلانيته التي تنبثق عن جهازه العصبي بكل تشعباته داخل الجسد البشري.

هذه العقلانية هي ذاتها الروح والتي تسميها الديانات- نفحة من الإله- هي أس المعرفة والعلم، وأس المسؤولية. ومن خلالها يكون الاختيار.

خلق الإنسان مزودا بكل ذلك ولكنه أيضا ذو غرائز كباقي الكائنات وقد نتغلب على كل تلك المعايير والقيم وبهذا تكون تلك القيم نسبية غير موضوعية نتحكم فيها

الأهواء والمصالح وحب الذات الفردية درجة أولى ثم الذات الجمعية وأخيرا تأتي الإنسانية..

***

أسماؤنا

فعلاً هي مجرد ألفاظ لا قيمة لها دون من تشير إليهم.
كلمات لا تأخذ معانيها إلا من دواخلنا، من ذواتنا.
قد ترى الوردة تعجبك وتتمنى أن تحظى بها لكن الأسماء بالذات ستبقى بلا أي معنى إلا بعد أن يمتلأ كأسها الفارغ بصفات وميزات وكينونة ما!
قد أسمع اسما من الأسماء ألف مرة كل يوم ولكنها لن تثير في نفسي أي إحساس، وبمجرد ذكر اسم آخر تتجلى السعادة قائمة بين يدي، تتسلل إلى مهجتي لتنعش الحياة فيها. ولا أريد أن أذكر العكس.
تتذكر صورة الشخص، عطره، كلماته، ابتسامته وحتى قهقهاته التي ترسل أشعتها من خلف غيوم الغياب فتضحك أرواحنا أو أقله ترتسم البسمة على الشفاه.
مهما كان الإسم، لا ولن يكون هو ذاته عندما يتلبس فردا ما ثم نحاول أن نطلقه على فرد آخر، حتى الأسماء الجميلة قد يزول رونقها أن لم يكن صاحبها على

مستوى جمالها. احرصوا على جمال نفوسكم لتتجمل أسماؤكم فأصل الجمال أنتم لا تلك الأسماء مهما حملت من معان..!

***

جمال يختبئ في الأعماق

بعض النفوس الرقيقة الشفافة كسطح مياه صافية رائقة هادئة هي، تبدو ساكنة لا حراك فيها إلا أنها في حقيقة أمرها مضطربة، حراكها ثورة في الأعماق.

نسمات بسيطة ان مرت من فوقها زادت من اضطرابها آلآف المرات، تمخر خلالها كأنها مركب ملائكة من السماء يمر تاركا خلفه تموجات نور وضياء، تموجات قد لا تبصرها العيون لكنها تؤدي إلى حركة دائبة قد لا تنتهي واضطراب كلما مر الوقت عليه ازداد.

كم من مرة نظرنا إلى مسطحات ماء رائقة خدعنا هدوءها، وبحيلة بسيطة أمكننا أن نقف على حقيقة حراك ذراتها وجمال حركاتها الرشيقة المتناسقة كأنما هي ريشة فنان تنثر الجمال في لوحات فنية بديعة وبكل وعي وإحساس مرهف ثم نستغرب إذ علمنا أنها مجرد حراك لا وعي فيه، لكنها روح كونية تترك بصماتها أينما حلت.

ولتدرك صدق ما أقول خذ وعاء مسطحا مستويا وضع فيه كمية من الماء ثم أتركه حتى يبدو لعينيك انه في هدوء تام، أحضر بضع قطرات من الحبر أو الصبغات تم انثرها عشوائيا فوق المسطح، انتظر قليلا ثم وبكل هدوء ألصق صفحات من الورق على المسطح أو مرره فوقها، لحظات ثم انتزعها وستحصل على لوحات فنية في غاية الجمال والإبداع.

كذلك تلك النفوس الشفافة الرقيقة الرائقة التي تبدو لنا هادئة ساكنة لا حراك فيها، جمالها يختبئ في أعماقها لن يظهر للعيان إلا أن نثر أحدهم قطرات من ذاته في نفوس هؤلاء، بعدها انتظر ظهور آيات من الجمال لم تر له مثيلاً.

***

نفحة من الإله

أنت حقاً مخلوق من طين ولكن بك ما ليس بالكائنات أجمعين. فيك نفحة من الإله، روحا جعلت لك نفسا ليست لكائن سواك من العالمين.

أنت بعضا من روح الله، وقد فهمت اليهود هذا خطأ فقالت العزير ابن الله، وتاهت عقول النصارى عن الحق فقالوا المسيح ابن الله. وقدس العلويون عليا وكادوا أن يجعلونه مكان الإله. وقال الله تعالى:

«فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»، «ثم سواه ونفخ فيه من روحه»، «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا»، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام...»، «يوم يقوم الروح والملائكة صفا»، "أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه».

بعد كل ذلك ألا تريد أيها الإنسان أن تحلق في عوالم روحانية هي لك وحدك من دون المخلوقات كلها، ترتادها

وتسعد بها! لما تقبل ألا تشدك طبيعتك إلى الطين وحده بعد أن وهبك الله الشيء الثمين.
لما لا تسمو فوق دنيا الزوال إلى عوالم الخلود حيث ستخلد روحك هناك. لما كل هذه السلاسل التي تقيد بها ذاتك إلى جسد فان من طين سيأكله الدود يوما م؟!
لما تشد نفسك وروحك الطاهرة إلى طبيعة لم تخلق إلا لتلفتك عن روحك وعقلك من أجل بقاء النوع لا أكثر، ومتعتك الحقيقية إنما هي في بقاء مخلد لا سراب كلما اقتربت منه ابتعد عنك!
ألا تستحق أيها الإنسان أن تسمو على ذلك وتكون أنت هو أنت فعلا؟! صدقني فهذه الطبيعة التي نتمسك بها حتى تكاد لا ترى غيرها ما هي إلا سراب سيختفي وتبقى روحك خالدة لأنها نفحة الإله وعطاؤه.
هي شيء من ألوهية يرفضها جسدك الفاني ولا يبالي بها. فتتوه أنت في عوالم المادة، أن خسرتها خسرت جوهر ذاتك. حاول التحليق بعيدا عن ماديتك ولو بعض حين.
***

فصـول الحيـاة

كما هي فصول السنة هي حياة الإنسان. كما هي فصول السنة هي مشاعره وأفكاره وحتى دنياه. كثيرا ما أشعر بخيبات الأمل في كل شيء، وأحيانا بجدوى كل شيء. كثيراً ما أكتب وأترك كتاباتي على أوراقها في دروج منسية، وأحيانا أخرج بها إلى العالم. كأنما هو الربيع وتلك الكلمات أزهار حديقتي.

أراها أحيانا يانعة جميلة، ملفتة للعقول، مولدة للأفكار في أذهان الآخرين. وقد أراها تافهة لا تستحق حتى القطاف. باهتة، لا جمال فيها ولا بهاء.

أحداث أيامنا والساعات كذلك منها ما يسعد القلوب وينير النفوس بقناديل الأمل، أو بنور رباني في الأذهان. تحب، تشتاق، تتمنى، وقد تكره وترغب بالابتعاد إلى أقصى مدى، عن كل شيء حتى عن ذاتك عن الأشخاص من حولك أو عن الأماكن والأشياء، بسبب وبدون سبب، إنها

كالفصول مشاعرنا نادرا ما تحكمها العقول ولكنها الوقائع والمعاناة.
إنها نحن بكل ما فينا من قوة وضعف، إقدام وإحجام، أمل ويأس، وقد يكون مجرد تخاذل لا غير. عقل، منطق، منهج، أداة، طرق ووسائل، جميعها تأخذنا صعودا وهبوطا ونفوسنا تتعب وكم تود لو ترتاح.
ولكن هل يرتاح السباح في عرض البحر إلا ليمضي محاولا الوصول إلى شاطئ الأمان. ونحن نعي تماما أن ليس في حياتنا شواطئ أمان أبدا.
ولكنها سباحة مستمرة لن نتوقف كما التنفس ودقات القلوب، كما المشاعر ومعاناتها، إن توقفت فهذا يعني أن الحياة ذاتها قد توقفت وماتت القلوب وألغيت العقول، ودخل الدماغ في غيبوبة مزمنة، وانتهت كينونة الإنسان.
* * *

حَديثُ القلب

أصدق حديث يمكن أن ينطق به لسان البشر هو حديث قلب إنسان صادق التعبير عن ذاته، يتحدث بأصالة لا عن تقليد.

وهنا «القلب» ليس يعني تلك العضلة التي تضخ الدم، إنما هي الأحاسيس والمشاعر التي يعانيها الإنسان. ولكننا مجازا نقول «القلب»، لأنه أول ما يستجيب فينا لهذه المشاعر هو تلك العضلة، بتسارع دقاته أو عدم انتظامها، أو انقباض الصدر نتيجة لذلك.

ما نعانيه هو تعقل شاعر، تعقل نتذوق من خلاله معاناتنا، تعقل يصحبه شعور صحو، تذوق لعمق الذات وما نتضمن، معاناة مباشرة لاتصالنا المباشر بالحياة والناس والأشياء من حولنا.

إنه تعاملنا مع مفردات الحياة كلها. فالفقه ليس هو مجرد الفهم أو تعقل الموضوعات والموجودات وإنما هو

إدراك المشاعر ووعيها وعيشها. هو معاناة ما نفهم وما نعي. فإن كان الذهن هو وعاء المعلومات، فالقلب هو الإبحار فيها.

***

طعنة في الصدر

لا أمان في هذه الدنيا فإن خفت الله فيها مرة فليكن خوفك من أخيك الإنسان ألف مرة.

يكفي أن تراقب الله وتخلص له، يكفي أن تصر على طاعته ليعيدك الى حرم قدسه مهما أخطأت ولو آتيته بقراب الأرض خطايا، يعفو عنك ويبدل سيئاتك حسنات.

فعدل الله ثم عفوه وإحسانه. فأين أخيك من هذا؟

أدر ظهرك ولا تخف من طعنات أحدهم فالله يحميك. ولكن الخوف كل الخوف من طعنات في الصدر وأنت تنظر لا تحرك ساكنا من شدة هول الصدمة.

***

خيبة أمل

نحن بشر، وكثيراً ما تخيب ظنوننا بالآخرين بذات الدرجة التي تخيب فيها ظنون الآخرين بنا.

كم يكون هذا الأمر مؤلم، ومحبط للنفس، وكم نحاول أن نواسي أنفسنا إلا أن الجرح الذي يبدأ سطحيا يأخذ في الامتداد حتى أدق الشرايين ليسمم الحياة كلها؟

والغريب في الأمر أن الأكثر إيلاماً هو محاولة التخلص ممن يسببون لنا هذه الآلام!

* * *

العمق البعيد

الإنسان كائن غريب ما أسرع ما نتماثل نفسه للشفاء ظاهراً، ويستعيد حياته على أبعاد الناس الثلاثية، ولكن يبقى عمقه البعيد أبعاد عديدة لا يتوقف جريانها وما يميزها أنها تحمل تفاصيل تأخذ اتساع كل بعد وتلبس غيبه.

هو الإنسان يحادث هذا، يداعب ذاك، وينجز واجباته ويحمل أثقاله. يتعبد ربه، يقرأ تراتيله، وفي الأعماق غصة. ولا يريحه إلا مناجاة من ربه تتبدى في سماء روحه.

***

كُلنا ذلكَ الكائنُ

في فيلم تسجيلي قصير قديم لإحدى الفنانات القديمات، قدمته منذ أيام قناة روسيا اليوم سمعتها تقول للمذيع الذي أجرى معها المقابلة:

أخيرا وبعد سنوات من خبرة الحياة ومعاناة دقائقها وتفصيلاتها وتقديم العديد من الأعمال الفنية ومخالطة البشر بكل أصنافهم ومعادنهم.

بعد كل هذا الزخم في حياتي أجدني قد خرجت من شرنقتي التي نسجتها حول نفسي كما تنسج دودة القز شرنقتها لتصنع تلك الخيوط الناعمة الدقيقة الملساء الرقيقة القوية والمتينة.

لقد صادفت في حياتي الكثيرين ولكن قلة منهم من أثروا في حياتي وأثروها، وحملوني برضاي وأحيانا قصرا على تغيير قناعاتي.

ليس بقوة الشر فيهم ولكن بقوة الإقناع وخبرة حيواتهم، فكثيرا ما نقف نحن كالسد المنيع نرفض أي تغيير حتى

يأتي أحدهم ويحطم ذاك السد المنيع.
أخيرا خرجت من قوقعتي وصادقت الكثيرين ولكن بكل حياد وعقلانية وإحساس بالمسؤولية اتجاه نفسي والآخرين.
لم تعد مشاعري وأحاسيسي وحدها هي بوصلتي. عرفت ان هناك عدة بوصلات توجهنا التوجه السليم، ولكن علينا حساب الإحتمالات على أن لا نتوه بينها ونضيع.
أخيرا أرى أنني قد نضجت عاطفيا فقد كانت حياتي في السابق تتمحور حول شخص واحد أو عدد قليل منهم، أرى الدنيا من خلال عيونهم هم، وأستشعر الوجود من خلال نبضات قلوبهم، وأتنفس الحياة من خلالهم. والآن أنا أرى الدنيا بعيوني.
بدأت أتنفس الحياة من خلال ذاتي وبدأت السموم التي ترسبت في الأعماق تزول. أصبحت أرى بكل وضوح، وبالأحجام الطبيعية لا قصر نظر ولا طول.
كم هو رائع أن تعود إلى الحياة غير محمل بأوزار لا لزوم لها، كم هو جميل أن تراها كما هي بكل الجمال الذي ابدعه خالقها. كم نحن أغنياء بأنفسنا وكم قد نغتني بالآخرين.

* * *

بشر ووحوش

الحب سيدي أسمى شعور يمكن لإنسان أن يتذوقه، ألطف مايعانيه، نسائم توقظ الأرواح، لولاه لاكتفت النفس بالغرائز، ولما ارتقت إلى عوالمها السحرية.

الحب مفروض به الأمان، الحماية، وسكون نفس لنفس وإن رافقه صخب الحياة. ولكن للأسف لوث الناس وجه الحب، وقبحوا معالمه، وألبسوه ثيابهم حتى بدا غريبا شريداً طريداً، أو غدا كالوحش الكاسر يفتك حتى بصاحبه.

ليست رومانسية مني ولكنها حقيقة.

***

تعلمت...

تعلمت فيه ما لم أكن أعلم.

تعلمت أن الإنسان قيمة القيم وإذ خرجت منه وعايشت بعضهم تعلمت أكثر.

تعلمت ألا أعبث بأشياء غيري لما عانيت من غيري.

تعلمت ما هو أكثر من الأدب، أن النفوس قوارير رقيقة شفافة إن ازداد ضغطك عليها قد تتكسر.

تعلمت أن النفس زهرة تبقى نظرة أن لم تدس. تعلمت أن بعض الكلمات ليست كلمات بل حجارة تقذف على النفوس تؤذيها، تخدشها أو تدميها.

***

فالق الإصباح

تصحو أحيانا من نومك- وأن كان مجرد سنة من النوم- ونفسك قد ارتوت بامتنان لله والكون والوجود بإسره، حتى لذاتك ولمن تحب.

ليس لشيء إلا لفكرة هي أس ذاتك، هي ما يقوم عليه بناؤك. بل هي حقيقتك التي غابت عنك، غشيت عنها عينا بصيرتك ببعض معاناتك.

أقول، تصحو منتشيا بسعادة لا تترك لبرهة حزن مجالا لتتسلل إلى نفسك. تشعر بامتنان للفجر، بل لرب الفجر أن أيقظك متبتلا بين يديه معاودا الإيمان بمن خلق فسوى، معاودا التسليم بمن قدر فهدى.

لم تكن يوما غير ذلك لكنها الأهواء قد مالت بك شيئا يسيرا. سبحانك ربي ما أعظمك إذ تعيد قلبي إلى حماك، ماأعظم عفوك، ما أعظم عطاياك. جعلت نورك هاديا وجعلت فجرك الضيا. وأشرقت في القلب عرفانا به يهتدى.

إلهي في القلب ما فيه وأنت من تقلبه، فاجعله ربي خالصا لك وحدك واجعل ذاتك مقصده والمنتهى. واجعل لهذا القلب ممن تحب وما تحب له هوى. فلا تراه ربي إلا حيث تكون ويكون هو.
ليس شركا بك ربي فأنت من زرعت حبه في القلب وليس غيرك من يقلعه. إلهي أنسي بك لن يضيمني وأنسي بغيرك هلاكي وقلبي ما فتيء لك يتعبد.

***

الاستقامة والاعوجاج

أناس لا يرون في الخط المستقيم سوى استقامته، وآخرون يحاولون إقناعك بأن هذا الخط فيه بعض اعوجاج.
وذات الشخص وإن رأى المستقيم مستقيما إلا أنه يرى الغيمة تشكيلات فنية جميلة التكوينات.
نتخذ في كل حين صورة خلقتها يد الإبداع ثم يأتيك المجادل ليقول: إنها مجرد كرة من البخار والماء.
هي حقا كذلك ولكنها جمال الخيال وقد تجسد. هي هنا صورة لطفل بريء الملامح، وهناك سمكة أو فيل أو زهرة لونتها أشعة شمس خجولة.
الإنسان في الحالة الأولى، إنسان صادق النفس، سليم الفطرة يلتقط الحب والجمال بشغف طائر لحبات القمح.
وفي الحالة الثانية غريب الأطوار. مراوغ وإن بدا صادقا. هما إنسانان من الصعب أن يلتقيان، فكيف لهما أن يتعايشان.

قد يشتركان في برهة من الزمن يسترقانها، يلهوان، يفران من جمود في الحياة. أولهما، يصعب عليه أن يخلع عنه جلده، والآخر سابحا في دنياه لا شكل له.
أولهما دائم البحث عن صدقه قيمة ومعنى وواقع ملموس محسوس معاش.
والثاني مراوغ كل يوم هو في شأن جديد. متلون يصعب الإمساك بحقيقته، فكيف بامتلاكها. كم أكره المراوغين وأفعالهم.
إن أعجبت بذكائهم وقدرتهم على التلاعب إلا أني في النهاية أنفر منهم. هم يستهلكون الروح والجسد ويستنفذون الطاقات.
أما أنا فكم أحن إلى الركون إلى إنسان حقيقي الكيان حقيقي المشاعر وليس من ورق. تسندني يد حقيقية واحدة ولا ألف يد وهمية تطل من عالم وهمي لاأرتضيه ولا أقبل فيه. أعيش بلا يد تربت على كتفي أفضل من ألف يد كاذبة.
أرى صورة واحدة أحبها خير من ألف صورة مزيفة. أعيش بلا حضن يحتويني ومشاعري، أفضل ألف مرة من حضن مراوغ كاذب لا قالب له.
صخرة أثبت عليها هي عندي أجمل من قصور سليمان وعروش الجان. أريد صدرا حقيقيا لا بحر ماء لا قالب له. جميلة هي الحرية مغرية. ولكن الأجمل أن تجد السمكة بحرا تسبح فيه. وان يجد الطير سماء يحلق في أجوائها. فالدنيا الجميلة لا تكون إلا بأرض محددة

المعالم وسماء تحيطها.
وأنا أريد إنسانا بكل حقائقه بكل خيره وشره، بكل ما تحتويه نفسه بكل ما بين أضلاعه. إنسانا حقيقي التكوين وليس ملاكاً أو كائناً من الجان.
عندها ألتقيه بألف قبلة وقبلة وأرتضي به لي كيانا يحتوي كل ذاتي بكل ما فيها من حب وعشق وخوف وآمال وآلام وحنين وما أستشعره ولا أستطيع وصفه. فأين أنت يا أماني وبحري وجوي لأمارس من خلالك حريتي؟
***

أسطورة الأساطير

وهل ينسى الإنسان من زرع في نفسه بذرة تعهدها بالرعاية والاهتمام حتى آتت أكلها كل حين؟!

لم أكن لأتصور أن بذرة التفاح الصغيرة ستكبر داخلي وتتفرع حتى تكون أنا. لم أكن لأتصور أن شراييني جذورها، وأن أعضاء جسدي تفرعاتها وأن الخلايا أوراقها. والقلب ينسكب منه لحنا شجيا، موسيقى ونغم، كلمات وحروف، نار ونور، ماء وبرد.

بذرة أنبتت أشهى الثمر، تفاحة من الجنة، سر الحياة، عطر يفوح تحمله النسائم رسولا بيننا، نكهة الدنيا ولذتها وطعم الخلود وكنهه، الصحة والجمال، رمز الدلال، ولكنها أيضا سر الفناء. هي المفارقات كلها، تحمل في نسيجها كل المتناقضات، هي تفسير نفسي ونفسك، هي أنت وأنا هي تمامنا ونحن أنصافها.

هي جنة المأوى وسعير جهنم، هي منتهى العفة وقمة

الخطيئة. هي الأتون يصهر معادن البشر ليعرف كلا منا من يكون،هي ترمز لقمة الطهر كما ترمز للخطيئة، لها ألف طيف، وفينا من كل طيف.
هي كالقلب في كل تفصيلاتها: ألوانها، تكوينها، ليونتها وسرعة العطب فيها. هي أسطورة الأساطير. تهمس لآدم بلسان حواء: أنا حواءك يا آدم، ليس لأني الأفضل أو الأجمل، ولا الأبهى أو الأحلى ولكن لأنك أنت من زرعتني.. فلك الزهر والثمر.
***

القلوب الجريحة

أحمد الله حمداً كثيراً طيباً أن اغنانا سبحانه عن تفعيل هذا المنظر في حياتنا.

تصوروا لو أن القلوب ترتق بهذه الطريقة التعسة. والله لكنت حينها آثرت قلبا مجروحا ممزقا على أن يستقر قلبي بين يدي- سمكري- كما أي أداة أخرى خربة.

ليس استخفافا بالسمكري، بل ترفع عن أن يكون القلب مجرد أداة كما أي أداة مادية أخرى..

أحمد الله أنه جعل الكلمة الطيبة، والبسمة الندية، واللمسة الحانية، والضمة الدافئة ترتق جراحات قلوبنا وتعيد لنا إشراقة الفرح أجمل مما كانت.

فضفضة نفس لنفس، بوح قلب لقلب، وطبطبة صديق أو حبيب على كتفي الواحد منا فإذا ببعض الهموم تتساقط كما حبات العرق وتنتهي بعض أحزاننا.

تحمل شيئا مما يثقل الظهر فإذا بك تتخفف من وطأتها

بحنو عزيز عليك.. هنيئا لكل من يجد تلك اليد الحانية والبسمة المشرقة.. وذاك الإنسان النبيل الذي يحمل معك بعضا من همومك دون أن يشعرك أنك ثقيل الحمل، ثقيل عليه.

***

«الجميل» في القرآن

من منا لم يسمع بقصة يوسف عليه السلام وما فعله إخوته به. صبر الأب النبي على أبنائه الفاعلين وهو يعلم مدى كذب زعمهم.

يراهم يحملون قميص أخيهم مدعين أكل الذئب له. فهل هناك محنة أشد وقعا من ذلك على النفس وأعظم إيلاما.

ماذا فعل يعقوب عليه السلام إزاء ذلك إلا أن قال:

"بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون".

هذا هو الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا سخط، بل اشتكى إلى الله وطلب منه السلوان واستمد منه تعالى القوة على احتمال الموقف.

صبر على أذية أبنائه، لم ينتقم منهم ولم يعلق لهم المشانق ولم يذهب إلى حاكم ولا قاض ليقتص منهم.

هذا هو خلق المؤمن بربه، وهذا هو سمو الذات العارفة

الحكيمة والتي تعلم خبيئة النفس الإنسانية.
وهو في رحلته الصبورة هذه لم يتطرق اليأس إلى قلبه، ولا ضعف إيمانه بربه، ولا ترك السعي للبحث عن تحقيق أمله بلقاء الغائب. هذا هو الجميل الأخلاقي في القرآن الكريم.
«.. واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا»..
والهجر الجميل يكون إذا اقتضت الحاجة بأن يعرض المؤمن عن أذى الآخرين ما أمكنه ذلك سواء في القول أو السلوك، ولا يجازيهم بالمثل، لا تجريح فيه، ولا تشهير ولا تشفي أو شماتة، دون أحقاد ولا أضغان، كي يبقى باب الأمل في العودة مشرعا.
إذ أن المخالطة هنا ليست مخالطة هامشية ولا هي مجرد مخالطة التعايش بل مخالطة فاعلة ومنفعلة وعلامتها الصبر والبذل والنصح والتضحية. يخالط الناس كل الناس بشتى أصنافهم.
فالمسلم يخالط الناس ويصبر على أذاهم. هذا أفضل من أن ينزوي عنهم. عن ابن عباس قوله: «خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم ودينكم لا تكلموه». بمعنى، خالطوا الناس ببراءة قلبية وإياكم أن تتسببوا في تجريح دينكم.
هذا هو جمال الأخلاق في القرآن الكريم، فكم اغترفنا منها يا ترى أو تحلينا بها أو مارسناها وعملنا بها..؟!
«.. فتعالين أسرحكن سراحا جميلا..»
«.. فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا..»
من فضل الله علينا ان السلوك الإسلامي تأسس على

مبدأ الجمال، هذا المبدأ الذي عميت عنه قلوب وبصائر معظمنا نحن المسلمون حتى اسودت دنيانا وامتلأت بدخان الكره والبغضاء نتنفسه بكل أريحية وكأنه الهواء النقي من كل شائبة.

السلوك في الإسلام يتأسس وينبني على أرضية من الجمال الخلقي الذي يتمدد في تربة الذات الإنسانية حتى أعمق جذورها. هذه الأسس الجميلة لا بد تتبت كل جميل لو أننا انطلقنا منها إلى المجتمع بكل تعقيدات حياتنا وعلاقاتنا.

امرأة تزوجت وشاركت الزوج دقائق حياته كلها ونفذ هو إلى أعمق ما فيها من مشاعر سواء حبا أو نفورا، قبولا أو رفضا.

هما ارتبطا برابط ليس كمثله رباط آخر في الوجود، وعليه لا بد أن تكون الأسس التي تجمعهما على ذات المستوى.

وهذا بالضبط ما تحدث عنه القرآن الكريم ووصفه بالجمال عند التسريح فكيف بالحياة المعاشة. وطالما أن العصمة في معظم الحالات بيد الرجل فعليه حينها وجوب هذا التسريح الجميل، حتى أن لفظ التسريح هنا جاء ليزيد الموقف جمالا وهو يعالج أمرا في غاية الصعوبة على النفس البشرية.

سراحاً جميلا، هذا اللفظ وحده له معان في غاية الجمال فكيف إن اقترن بلفظ الجميل! إنه تأكيد من القرآن الكريم على حسن التعامل فيما بيننا.

«سراحا»، لفظ سهل النطق به، موسيقاه لذيذة عن سماعها، له وقع حسن في النفس، وأجمل ما فيه أنه يعني التحرير من غير أذية وبكل سهولة ويسر، دون إهانة لها أو لأهلها، دون أضرار أو منع حق، دون ملاحقة أو تعقب بشتى أنواع الإساءات.

لا عدوان أو تجبر بها، لا تعقيدات تجبرها على التنازل حتى عن فلذات كبدها. إنه وبكل بساطة كمن كان لديه عصفور وأطلقه إلى الفضاء.

هذا هو التسريح الجميل، التسريح بإحسان ليس للزوجة فقط بل وفي كل علاقة إنسانية. تصوروا أن دين الإسلام كفل للمرأة كامل حريتها قبل الزواج وأثنائه وبعده، حتى أن شظف العيش ليس مفروضا عليها ولا يحق للزوج أن يرغمها على القبول به.

ولكن مقابل هذا لمن تصبر جزاء عظيماً عند خالقها. إنها حرة مخيرة. وقد طبق «محمد» رسول الإسلام- صلى الله عليه وسلم «هذه الأسس الإسلامية عندما خير زوجاته بالبقاء معه أو المفارقة بسبب شظف العيش الذي اختاره هو أسلوب حياة، إلا أنهن اخترن البقاء مع نبي هذه الأمة على التسريح من قيد الزواج.

«.. وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل..»

بمعنى أعرض عنهم إعراضا جميلا واعف عنهم عفوا حسنا وقل سلام. لا تشغل قلبك بالحنق والحقد فالحق أولى أن يحق، إن لم يكن في هذه الدنيا، ففي الآخرة..

يوم يقف كل إنسان فرداً في مواجهة الحق حاملاً صحائف أعماله. العفو والصفح هنا يكون بتجاوز الذنب أو الخطأ أو السوء الذي تسبب به شخص ما أو أشخاص.

لا تعاقب ولا تعاتب بل تعرض إعراضا تاما عن أذاهم دون لوم. تطوي صفحة الماضي تماما وتنهي كل خلاف وأي خلاف، وتمحو ذكراه ما استطعت.

أي جمال يعلو على هكذا جمال لنفس الذات المؤمنة بربها لو صدقت، فالعفو يكون بتجاوز الذنب وعدم اللوم أو العتاب لكن الصفح يكون بنسيان الإساءة نسينا تاما. فهل هناك أكرم من ذات تطبق هذا المبدأ الأخلاقي الجميل. لا حقد، لا أذية، لا تمنن. سبحانك ربي ما أجمل مبادئ ديننا القويم.

هناك آية واحدة لا غير جاء فيها لفظ «الجمال» في القرآن الكريم، هي: «.. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون..» جاء هنا كوصف معنوي لحالات نفسية وليس لجمال شكل معين، ليصف سعادة الإنسان بما يملك. هذا هو «الجمال»، وذاك هو»الجميل» في كتاب الله تعالى، جمال أخلاقي بامتياز. فهل هناك أجمل من هذا. أما جمال المنظر فتصفه ألفاظ أخرى.

***

الله... والعالم

سمعت أحدهم يقول إن على الله أن يتدخل لينقذ العالم مما يحصل. أجبته أن العالم الذي نعيشه هو مسؤوليتنا نحن بكل تفصيلاته. وإن على الله- إن كان عادلا- ومن المؤكد أنه عادل، أن يحاسبنا نحن على كل خطأ نقترفه في حق هذا العالم.

كل ما حدث ويحدث هو مسؤولية إنسان ما، حتى وجود فقير يطلب الإحسان هو مسؤولية الإنسان ذاته، مسؤولية مجتمعه، مسؤولية الحاكم.. توقفوا عن لوم الله وأعملوا عقولكم واعملوا بأيديكم. لوموا أنفسكم ولا تلوموا الله.

***

اعتقد ما شئت...

ليقل كل منا ما يشاء، ليعتنق أيا من المعتقدات، ليفسرها كما يريد، ولكن بشرط واحد، أن يقف ويقول بكل جرأة وشجاعة قولة الشافعي: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب». ليس هذا فقط. بل ليقل: «هذا تصوري، ناقشني فيه، ناقشني حتى نصل إلى ما هو أقرب إلى الصواب». فأنا وأنت وهم لا نملك الحقيقة ولكن البعض منا يكون على تماس معها فلا يصيبنه الغرور لأنه عندها فقط سيحترق بنارها وقد يحرق كل ما حوله ويحول دنياه ودنيا الناس من حوله إلى رماد.

***

معايير بشرية

لكل منا معاييره، ولكنني أعتقد أن هناك معياراً واحداً مشتركاً بين جميع البشر على اختلاف مشاربهم، معتقداتهم وأديانهم والبيئة التي نشأ فيها كل منهم.

وهذا بالتأكيد أول ما يعنيه بالنسبة لي ولكثيرين غيري، عدم التناقض ومن ثم الاحتكام إلى الواقع حتى ونحن نعمل على تجاوزه. لأنك لن تتمكن من القفز عن واقعك هذا إن لم تدرك موقع قدميك فيه.

ومن معنى العقلانية أيضا ذاك التوازن الذي يمكنك من السير فوق ذاك الخيط الرفيع والدقيق بين الصواب والخطأ، بين الحق والباطل، بين الصدق والكذب، بين الإخلاص والرياء، بين الحرية والبوهيمية، بين الإنسانية والوحشية، بين الخصوصية والعمومية...

وهكذا إزاء سائر المعاني المتقابلة. فإن تمكن الإنسان من ذلك يكون قد امتلك الحكمة. «ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا». إنها القدرة على الوصول إلى الحكم الصواب وانفاذه في الحياة، أي تفعيله، والعمل ضمن شروطه.

***

هَوّس يشوّهُ الحياة

بعض المسلمين مهووسون بالدعوة إلى دينهم وهم لا يعلمون أن الإسلام انتشر من خلال القدوة الحسنة والكلمة الطيبة والأخلاق الكريمة والمعاملة بالحسنى وبأحسن الحديث.

وبعض المسيحيين كذلك مهووسون بالتبشير، وكثيرون منا ومنهم يستبد بهم هوس السب والشتم ومخاصمة الآخر. يحملون ميزان التقييم وحق الجزاء نيابة عن الله.

لو أنهم تركوا الناس يختارون أديانهم وعقائدهم بكامل حريتهم وحسب ما ترتضيه نفوسهم وعقولهم وبصائرهم لما حدث ما حدث وما يحدث الآن من اقتتال وتناحر وجنون لا مبرر له إلا الحقد والضغائن والبصائر العمياء والقلوب المتحجرة، وكل ذلك لا يرضي الله الذي نعبده جميعا.

اترك الناس يعبدون خالقهم كيف يشاؤون وبالطريقة التي

يريدون. الله وحده من سيحاسبك ويحاسبهم، وهو وحده من سيجزي أو يعاقب، له الأمر من قبل ومن بعد.
أفعل ما تمليه عليك أخلاقك وضميرك وامض في حياتك ودع غيرك يمضي ولا بد تلتقون عند نقطة معينة تتفقون جميعا عندها وتصبحون إخوانا.
لا أقول تعايشوا معا لمجرد ضرورة المعايشة وإنما اعترفوا ببعضكم البعض وتحابوا، وليتقبل كل منكم الآخر بكل رحابة صدر، إنما هذه الحياة غراس الدنيا والآخرة.
ما تزرعه فيها تحصده في دنياك قبل آخرتك.
انتقدوا، ولكن ليكن عن علم ودراسة ودراية بكل ما تقولون، النقد يحتاج إلى منهج علمي صارم، ودقة متناهية وشعور بالمسؤولية وضمير يقظ بينما السباب والشتم لا يحتاج أكثر من خواء الذات وانعدام الضمير. الأمور العقائدية تحتاج إلى تفرغ ودراسات أكاديمية ونقد للواقع الذي يعيشه البشر.
مشكلة بعض ممن يعتبرون أنفسهم مثقفين أنهم ينتقدون دون علم، يتقمصون دور رجل الدين من جهة ودور العالم الجاد من جهة أخرى ودور المثقف الذي يأخذ من كل دائرة شيئا مما فيها ثم هم يخلطون كل الأوراق ببعضها البعض ويلطخونها بالسباب والشتائم، ويقولون هاكم نتائج أبحاثنا.
ترى كم قضيتم على مقاعد الدراسة من سنين، وكم انفقتم من جهد ووقت لتقولوا ما تدعون؟!
رجاء لا تتقولوا بما لا تعلمون. إن أعظم العلماء عالم

قال: كلما تبحرت في العلم تبين لي أنني أجهل مما أظن..!
تواضعوا ولا يأخذنكم الغرور إلى جهنمه.. فليس بعد الجهل والغرور أسوأ من ذلك إلا إنسانا وقف وقال: أنا ربكم الأعلى.
***

قوانين اللعب

«وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون».
بمعنى أن هذه الحياة الدنيا التي تعيشونها تحمل في ذاتها أسباب اللهو وهي تجري بقوانين اللعب، فإما خاسر من يلعبها أو رابح. أساسها أنها لله وبالله. وإن لم تكن كذلك فالخسران المبين. جهد يبذل دون فائدة، ووقت ينفق سدى. وأعمال لا نتاج حقيقي لها. كعصف تذروه الرياح، يذهب هباء منثورا.
إنها شبيهة الوهم ولكنها ليست كالحلم، فالحالم مرفوع عنه القلم. نحن نعيش دنيانا بكامل وعينا ولذا حرمت علينا أسباب إذهاب العقل والوعي. هي شبيهة الوهم فلا سعادة حقة، خالصة. ولا ألم باق سرمدي.
هي شبيهة الوهم لأن من يعيش سعادة ساعة أو عام أو أكثر أو أقل إن تألم وسألته عند ألمه، هل بقي لك من سعادتك تلك شيئا الآن؟ لأجابك:

أبدا. ولو سألت سعيدا هل بقي من ألمك شيئا في لحظتك هذه؟ لقال: لم تبق إلا صورته. ومن لهى وتلهى ونسي نفسه جاءته لحظة اليقين، وعندها فقط يدرك قوانين لعبة الحياة وأسرارها ويرى نتائجها. ويدرك لحظتها أنه اليوم الذي لا ينفع فيه لا مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

***

ميلاد الحبيب

لا أدري متى بدأت ثورة تجتاح كياني، ولكن كل ما أذكره أنني لم أكن قد دخلت المدرسة بعد.

كنت أسمع الكبار يترحمون على من يتوفى ويزيدون أحيانا، ويحسن الله إليه. وعندما يذكرون الرسول يرددون: « صلى الله عليه وسلم «. كنت أرى في ذلك بخسا في حق رسول الله، وأذكر أني كنت أردد في سري – رحمك الله يا رسول الله – كبرت وكبرت ثورتي ورغم ذلك لم أحاول أن أسأل أحدا.

نقبت وبحثت حتى وصلت إلى حقيقة الأمر وهدأت ثورتي. فرسول الرحمة هو من وصفه ربه بقوله تعالى: "... حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم... "

فاستحق من الله تعالى هذه الصيغة الكريمة والجميلة في مبناها ومعناها. فالصلاة أخص من الرحمة وهي بمعنى الدعاء.

الصلاة من الله تعالى عليه هي الرحمة، ومن الملائكة

بمعنى الاستغفار، ومن الآدميين بمعنى الدعاء وطلب الثناء عليه في الملأ الأعلى، وإن من معانيها كذلك الدعاء له بالسلامة من أهوال يوم القيامة. صلى الله عليك يا رسول الله يا محمد.

***

كتاب أبكاني

مما قرأت في هذا الكتاب ولا أدري أهو صحيح أم لا؟ إلا أنه ترك أثرا في نفسي عميق حتى أنني أخذت أبكي فترة طويلة عندما قرأته لأول مرة.

وقد تساءلت بيني وبين نفسي عن مدى صدقه. فأخذت أبحث في كتب التفاسير والأحاديث حتى اقتنعت تماما بأن الله سبحانه وتعالى أرحم مما وصفوه لنا، وأن رحمته تتجاوز كل الظنون.

تحدث الكتاب عن وفاة آمنة أم النبي محمدا صلى الله عليه وسلم. وأن حادثة الوفاة لم تذهب من خياله قط، «وكان وهو رسول الله يذكرها فتفيض نفسه بالرحمة والحنان، وتأخذه الرقة فيرجو أن يشملها الله برحمته، ويسأله المغفرة لها جزاء ما قدمت له من بر، وما أفاضت عليه من حنان، ولكن «الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» فيأسى لذلك رسول الله، ويبكي حتى يبكي أصحابه.

ومن الأحاديث التي ذكر الكتاب «قوله لأصاحبه. . . . . وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة، فذلك الذي أبكاني. ما أرق شعورك وما أرهف إحساسك وما أعظم برك يا رسول الله. وصفك ربك فقال» وإنك لعلى خلق عظيم» جزاك الله عنا الجزاء الأوفى.

* * *

الثواب على الألم

لا أدري هل يثاب الإنسان على آلام معاناته كما يثاب على آلام الجسد. أولاهما كمعاناة يعقوب ويوسف. وثانيهما كمعاناة أيوب والمسيح، عليهم جميعا سلام الله. في كل عام تتجدد معاناتي مرات ومرات. أعيش الحياة لأستقبل الأحباب وأودعهم وقلبي ما استطاع تعود الغياب. كم قاومت، كم بكيت، كم صرخت، كم تصرفت كطفل أخذت منه ألعابه لينام.

وفي كل مرة كان يزيد عذابي ويشتد ويتلون بشتى الألوان. حتى شعرت أن روحي تتسل مني رويدا رويدا وما تغير شيء ولا نلت ما أريد وأتمنى.

ولكنها لحظة فريدة شعرت بقرب الله الشديد مني يواسيني أن كل ألم يصيبني لي به من الحسنات ما يتضاعف حتى يسد عين الشمس عني ويذهب لهيب القلب وتبرد

مقلتي عيني.

وترتاح نفسي وتطيب لقدر الله. وجدت الراحة عندما تقبلت كلام الله ووقر في أعماق ذاتي وأنا من آمنت طوال عمري كله أننا نحن من يصنع قدره، وغفلت أن الكون يسير على سنن خلقت كما خلقنا وكانت حقا كما وجودنا حق وكنا وهي كلمات الله.

ونحن مهما فعلنا فلن نغير من حقائق الوجود شيء إلا ما كان ضمن دائرة هذه السنن. فهل لحرف في قصيدة أن يلغي وجوده من مكان وضع فيه أو يضع نفسه مكان حرف آخر. نحن نكاد أن نكون كهذه الحروف مع فرق بسيط، أننا نتوهم أننا نستطيع.

***

اللدّغُ مِن الجُحر

حديثٌ شريفٌ، للرسول صلى الله عليه وسلم، قد توضحه هذه القصة الرمزية من أدبياتِ القصص على لسان الحيوانات، حَيثُ كانَ المُفكرونَ والأُدباءَ غير قادرين على التصريح بما يوَدْونَ إيصاله إلى الناسِ والحكامِ والمتنفذينَ في أوقات كُمِمَتْ فيها الأفواهُ وَحُجِرَ فيها على العقولِ وكفرَ فيها كثيرٌ من المؤمنين.

فكانَ لابد من تلك الأدبيات للتنفيس. ومن أشهر هذه الكتب في هذا المجال كتاب «كليلة ودمنة».

من هذه القصص قصة «الأسد والحمار والثعلب»، قصةٌ موجزها، أن أسداً اتخذَ ثَعلباً وزيراً له، أحسَ الأسد بالجوع يوماً وطلبَ من الثعلبِ إحضارَ حمارٍ لهُ بالحيلةِ ليأكُله. في أول مرة أقنع الثعلبُ الحمارَ أن يذهب معه إلى ملكِ الغابة- الأسد- لأنه يُريدُ أن يَجعلهُ مَلِكاً على الغابة ينوبَ عنهُ في غيابه وليعم الأمن والسلام المملكة

لما في الحمارِ من مواصفاتٍ تُمَيّزُه عن سائر الحيوانات من صبرٍ وحلمٍ وحكمة.
ذهب الحمارُ مع الثعلب فقام الأسد وضربهُ ضربة أطارت أُذنيه، ففر الحمارُ على الفور! ولم يتمكن الأسد من افتراسه.
عادَ الثعلبُ مرة أخرى وأقنعَ الحمارَ أن الأسد إنما أراد له الخير بفعلته تلك من أجل أن يُثَبتْ التاجَ فوقَ رأسه.
اقتنع الحمارُ وعاد مع الثعلب إلى الأسد انقضَ عليه مرة أخرى ولكن كانت الضربة على مؤخرته فقطع الذيل وفر الحمار.
عاد الثعلب مرة ثالثة ليقنع الحمار.. إنما أراد الأسد أن يُخلِصَه من الذيل كي يتمكن من الجلوسِ على كرسيّ الملك.
وافق الحمار أن يعود مع الثعلب، وهو يمني النفس بتاج وكرسي ومُلكٍ رشيد.. فإذا بالأسد ينقضُ عليهِ هذه المرة، ويتمكن من القضاء عليه.
طلبَ الأسدُ من الثعلب أن يسلخَ الحمارَ ويَبقُرَه ويأتي بالمخ والرئة والكلى والكبد، ويأخذ له كل ما تبقى.
عادَ الثعلب ومعه ما طلبه الأسد عدا المخ. فسأله أين المخ؟! فأجابَ الثعلب وكان قد التهم المخ، لم أجد له مخاً، فلو كان له مخ ما رجع لك بعد أن قطعت أُذنيه وذيله.
قال الأسد: صدقت يا ثعلب، أنت خيرَ وزيرٌ لي.
تُرى كم نَتَحَمْرّن نحنُ البشر الآدميين ونعيدُ ذات الأخطاء

مرات عديدة، ونوقع أنفسنا في الفَخِ ذاته المرة تلو الأخرى، وَنُلدغ من الجحر عشرات المرات..

ونقول لعله خير! ونحسن الظن بالآخرين، ونعتبرهم ملائكة لا يخطئون، أو أننا نحن من أساء القصد والنية، أو أقلّه نلتمس لهم الأعذار ونقول ما نحن إلا بني آدم، وكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

ونحنُ في النهاية لن نعلم عِلمَ اليَقين من سيكون الحمار ومن سيكون الأسد ومن منا هو الثعلب.. فقد تتقلب الأدوار في لحظة ما ويصبح الأسد هو من يمثل دور الحمار. وقد ينقلبُ السِحرَ على الساحر. وليذكر كل منا أن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، وأن الدنيا سلّف ودين. فنحن لسنا حيوانات.

***

صفات الجلال والجمال

سبحانك ربي، أنت الواحد الأحد. تفردت بصفات الجلال ومنحت لعبادك من صفات الجمال. أنت الواحد الأحد المتفرد بصفة الوحدانية فوق عبادك، منحت كل منهم الشيء الكثير من الفردانية والتميز.

فكان للواحد منهم ما يميزه عمن سواه حتى لكأنه جزيرة مستقلة تماماً عن غيره، بعيداً كلَّ البعد عنهم، لا يعلمون ما يخفي في جِنانه. متوحد في ذاته، تدور الدنيا وكأنما هي تدور في فُلكه الخاص. وجعلت عبادك جميعاً ذاتاً واحدة كأنما هم شخص واحد. يعيشون معاناة واحدة، وجدانهم هو ذاته. ورغم هذا وذاك حملت كل منهم أمانته وحده. لكل زمانه ومكانه. بل أزمنةٌ وأمكنة. حتى أن الفرد ذاته كل يوم هو آخر غير من كانه بالأمس! منحتهم مقومات الحياة وفوقها روحاً من روحك، ليتعرفوا عليك وليستشفوا وجودك، ولتكون أنت الصمد

الذي يلجأ الواحد منهم إليه. ولكل معاد. ارتضيت أن يكونوا عبادك ومنهم من يرفض عبادتك. غفرانك ربنا وإليك المصير.

***

ابتلاءات الدنيا

قد تكون ابتلاءاتنا في الدنيا من جنس ما سيهبه الله لنا لتحصين ذات الإنسان -الموهوب- من ذنوب قد ترتكب، إذا كانت هذه الابتلاءات مقدمة لعطاء من الله عظيم.

هذه الابتلاءات لن ننال حُسنَ جزائها إن لم نحقق شروطها، وأهم هذه الشروط كثرة العودة إلى الله ومعاودتها مرة بعد أخرى حتى تصبح صفة أصيلة ودائمة فينا.

فانظر إلى إبتلاء الله لداود عليه السلام في الحكم والقضاء- قصته في القضاء بين الأخوين ونعاجهما- وكيف أنه سبحانه قد جعله خليفة في الأرض بعدما آب إليه، إذ قال تعالى:

«يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله.....»
آية 26 سورة «ص».

وسليمان عليه السلام كان ابتلاؤه فيما سيملك من ملك عظيم لم يكن لأحد من الخلق لا قبله ولا بعده. ملك تفرد به وحده.

فقال تعالى على لسان سليمان: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب». آية 32 سورة «ص».

إنه من حب الله لعباده أن منحهم قبول التوبة والعفو عنهم والإحسان إليهم، يبدل بالعفو عن سيئاتهم حسنات، ويزيدهم من فضله عطاء بغير حساب في الدنيا قبل الآخرة. وهذه من سنن الله تعالى في خلقه، له المنة والفضل ربي وربكم ورب العالمين.

***

كلمات من نور

كلمات من نور استقرت في أعماق نفسي فأضاءت كافة جوانبها ولم نترك ظلمة أو سواداً ولا بقايا ظلال.

كلمات كلما قرأتها شعرت بطمأنينة وسكينة تعاش ولا توصف، فكأنما حملت إلى ما يشبه الجنة، إلى سماوات علا وتحركت في نفسي عاطفة نثير أحاسيس نشوة وسعادة تمر كلمح البصر وحدوث البرق، إلا أن أثرها يدوم طويلاً.

إنها كلمات ربي في سورة طه. تلك الآيات التي كلم الله بها نبيه موسى. هو حقاً نبي ولكنه آدميٌ من البشر مثلي ومثلك، خلق من طينتي وطينتك أيها الإنسان، وإنما هو سما باختيار الله له.

ظل موسى طريقه في الصحراء وحيداً في ليل مظلم ومتاهة الصحراء القارصة البرد وهو عائد إلى مصر، فذهب إذ ذاك يبحث عن هدى إذ آنس ناراً، والأنس

هنا كان إحساسه بأن هذه النار لا بد من مشعل لها قد يهديه الطريق، أو يحمل منها قبساً يدفأه وعائلته لم يتوجه موسى إلى النار بحد ذاتها وإنما قصد الهداية فكانت الهداية الحقيقية، وطلب الأنس، فكانت مناجاة بينه وبين خالقه.

فهنيئاً لك نبي الله موسى إذ كلمك الله قائلاً: «إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري».

لقد تقدس المكان بسبب هذا الحدث وكيف لا، وقد كلم الله فيه موسى فاطمأنت النفس وهدأ القلب وكان التكليف؟! فهنيئاً لك نبي الله موسى اختيار الله لك وانسك بمولاك، وهنيئا لمن أستشعر أن كلام الله موجه إليه، وأخلص له سبحانه.

***

عَقيدَتي كيفَ تَشكّلت

قرأت معظم كتب العقائد، قرأت للمؤمنين، للملحدين، للمشركين، للكافرين، لمن هم على الفطرة ولم يعرفوا دين، كما قرأت لمن ارتدوا عن دياناتهم أو هجروها أو استبدلوها وما وجدت دينا أو عقيدة تقنع نفسي كعقيدة الإسلام، ولم أجد مثلها تطمئن إليها نفسي، ويتقبلها وجداني.

دين الإسلام أشبع سائر احتياجاتي الروحية والعقلانية والمادية أيضاً، وقد يستغرب القارئ مني هذا الكلام.

كيف يجتمع الدين وعقائده وروحانياته مع الماديات؟!

كتاب الله- القرآن- بعد دراسة ليست بالقصيرة جعلتني أتوصل لما قلته سابقاً.

ربما يقال أنت نشأت مسلمة ولهذا كان منك ما كان.

وأقول لا. أنا لم أصبح مسلمة على الحقيقة إلا بعد جهاد طويل مع النفس والعقل والكتب والعقائد والحياة

ذاتها.

* * *

الحقيقة المطلقة

أن ترفض فكر إنسان شيء، وأن ترفض شخصه شيء آخر. أن تجرح كلامه، أفكاره، وأن تحللها، تنتقدها، ترفض بعضها وتقبل بعضها الآخر هو حق من حقوقك، خصلة محمودة، وهي عندي فضيلة.

ولكن عليك التسويغ وإبداء الأدلة والبراهين. أن ترفض إنسان ولا نتقبله فهذا أيضاً حقاً من حقوقك، وذاك هواك وأنت حر فيه، ولكن لا تجرح فهو مثلك إنسان لديه مشاعر وله نفس قد تتألم وجعاً يقتل فيه الإحساس.

أن تنتقد فهذه خصلة محمودة تدل على عقل ووعي وعمق إدراك، وسعة في المعرفة. أن تجرح شخص غيرك وكيانه فهي عندي خطيئة يصعب غفرانها أو تجاهلها.

لسنا كبشر نمتلك الحقيقة المطلقة، بل نحن قد نكتشف

بعضاً من جوانبها. لا تقل لي أن أفكارك عقائد، وأنها لا تطعن.
ولا تقل أن جميعها إلهية المصدر، وأنك تنطق بالحقائق التي لا تدحض. فأنت لست إله. عقائد إسلامنا معدودة، بسيطة لا تعقيد فيها، ونحن من عقدناها، ونحن من استولد منها عقائد ما أنزل الرحمن بها من سلطان.
اسمه السلام، وحملنا باسمه كل سلاح حتى غدونا نرهب ذواتنا قبل الأعداء، ونحن من استنبتهم من تربة الظلماء.
اسمه المؤمن، ونحن باسمه من كفرنا العالم حتى أقرب الأقرباء. اسمه البديع، ونحن من قتل باسمه كل إبداع حتى في نفوس براعمنا.
اسمه الجبار، يجبر الكسور، ونحن من نجبر خلقه على عقائدنا جبراً وإلا فسيفنا العقاب. هو المعبود وحده لا شريك له ونعبد في كل لحظة وموقف سواه.
ربي أعد عبادك إلى صراطك فقد ضل كثير منهم في الحياة وهم يوحدونك في كل صلاة.

* * *

لم أخلق للحب

لا تلاحقني بعينيك، فأنا لم أخلق للحب، للعشق، للوصل كباقي النساء.

أنا آية الله أجري في ملكوته، أبحث عن صورته في الأزمان. في ضحكة الأطفال، في زهرة يانعة تتنفس الفجر زهواً بذاتها تزخر بالألوان.

أبحث عن صورة الإله في كل جميل، جليل، يانع. أبحث عنه في زهر اللوز وفي ورود الحقل، في أزاهير الأقحوان. أعبده في صلواتي، في كلماتي، في سكوني، في ترتيل آيات القرآن.

ذكره في النفس دائم، لا يغيب أو يختفي خلف مشاغل الدنيا في الصحو، أو في المنام. أصحو على ذكره، فتتفتح الأزاهير وأشدو، فينتشي الوجدان. لا خمر، لا غياب عن الوعي، إنما تحليق روح سابح في الكون يتلذذ برحمة الرحمان. لك ربي وحدك محبتي، عشقي،

ولهي، سجود الوعي مني، وصحوة الوجدان. يسبحك من في الكون ويسجد لك طوعاً أو كرهاً، يوم يقام الوزن بالحق، يوم يوضع الميزان.

***

أسئلة حيرتتي

أسئلة طالما حيرتتي ولم أجد لها أجوبة إلا من وقت جد قريب. أسئلة شغلت بها نفسي وكادت أن تعجز عقلي. كأنما هي أحجية فوق مستوى إدراكي. نكشت أعماق أعماق ذاتي.

خرجت إلى العالم الواقعي الذي يعيشه البشر لعلي أجد من يهديني سواء السبيل. بقيت هذه الحيرة تزداد وتزداد حتى بدت وكأنها إشكالية ليس لها حل يزداد تعقيدها تعقيد، وأصبحت كالحريق الذي يعقبه الدخان الكثيف.

اسئلتي بسيطة وقد يراها البعض ساذجة، ولكنها جد مؤرقة لمن عاناها. لماذا يخطأ الناس في حق بعضهم بعضاً، ثم ينال المخطأ حقوق صاحب الحق، يقدم له على طبق من ذهب، وبكل طيب خاطر من الجميع؟!

لماذا يقف المظلوم حيران آسفاً قد أسقط في يده لا

حيلة له. كأنه غبي وسط حشد من الأذكياء، يقف كأنما هو آكل الحق بين شهود صدق وقضاة عدل؟! كيف يتمكن الجاني من تحويل المجني عليه الى مجرم آثم؟! أخيراً وجدت لما أهمني وأرقني جواب. فهذا المسكين الذي يلبسونه ثوب الذئب، ويجعلونه من فصيلة الثعالب، ويصفونه بآكل لحوم (حقوق) البشر؛ إنما هو صاحب ضمير حي. صاحب نفس لوامة تلومه إذا ما رفع شكواة، تلومه إذا ما فاض الكيل وصدرت عنه الآه، تلومه إذا ما طالب بحقه خوفاً من التغلب على سواه. تلومه نفساً تخاف الله، فتضعف حجته وتبهت أدلته، وقد يضعف منطقه ويخذله لسانه. قد قيل: إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، وأنا يا رب أخاف أن ألقاك وعلى فمي آثار آثار من الدماء.

صدقت يابن عبد الله، صدقت يامن عليك الصلاة والسلام من الله. صدقت فقلت: إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار.

***

بُستان الذات

علاقتنا بأنفسنا وبالآخرين كأيام السنة وفصولها، كهذا الوجود العظيم. كبستان عندما تدخله أول مرة كيف تراه؟ وعندما تغادره كيف ستراه؟!

والجواب واحد عندنا أجمعين. أيام يسكنك السلام فلا ترى إلا سلاما. وأخرى كأنما هي الجان يحملنا على بساط الريح في يوم عاصف، يكاد البرق يخطف النور من العينين، والرعد يصم الآذان.

سبحان من خلق وآتى كل شيء هداه. وجعل النفس بسعة الأكوان وتنوعها، وأرادها الإنسان بسعته هو. انسان بخيل، طماع. علاج نفسه وعقله وقلبه بضع آيات من القران، ولكن هيهات هيهات.

هي حرية جعلت فرعون يقول أنا ربكم الأعلى. ثم بعد ذلك جاءه الجزاء. هي حرية القرار بيدك. إفعل ما

شئت ثم يكون العقاب أو الثواب. هي حرية العقلاء.
سبحانك ربي.
***

عشق الذات الإلهية

يستحيل أن يكون حبنا لله سبحانه وتعالى مكتملاً دون أن يكون منزهاً عن أي حاجة لنا عنده. إنما هو حب وعشق لذاته وكماله وجلاله. وباعتقادي أي حب بعد حب الله إن كان سامياً لابد يكون كذلك. هذا فهمي للمحبة.

العشق درجة من درجات الحب وحالة من حالات التعلق. حب الله مغروز فينا حتى وإن لم نعتنق دينا أو نؤمن بآلهة.

إن هذا التوق إلى الله قد يأخذ أبعاداً عديدة، وقد يكون مبهماً يسيطر على مشاعرنا من حيث لا ندري. هو مغروز في طبيعتنا. ويصل إلى ما نسميه العشق عند بعض المؤمنين بدين ما أو عقائد معينة.

هذه الدرجة من الحب الإلهي تزيل كل العوائق والحواجز بين الإنسان وربه، لا يعترف العاشق للذات الإلهية

بالمكان أو الزمان ولا المسافات ولا بالعقل ومنطقه. لا يعترف بمادية الأشياء، فلولا ذلك ما صح شعوره حتى لديه.
لولا ذلك لم يكن لإنسان هو مجرد ذرة في كون الخالق أن يتطلع إلى أن يكون عاشقاً لمولاه. فأين الوهم من الحق. (وهو أي الإنسان لا يعلم أنه هو أيضاً حق. لأنه كلمة الله منحها من روحه لتكون حراً أمامه تعالى) . فهذا اعتقادي الشخصي لكينونة الإنسان.
***

محاصرة الذات والروح

ما هذا الذي اجتاح كياني وما ترك لي مجالاً للتنفس غيره. حاصر الذات كلها، قلبي ونفسي. حاصر الروح والجسد، ما أبقى مني شيئاً حتى الوهم والخيالات احتلها فما أبقى مني أثراً. أعيش به وله، هو الغذاء والماء والنفس.
له وحده الأرق والسهر والوجد وحبات العرق. عشته وكأن روحي مغموسة في ضياء بهي، شهي، مزهر، ربيعي المناخ، ربيعي الزهر. سلب اللب والعقل والوجدان وما بقي من الكيان حتى الكلام والإشارة والآه ما ترك. رباه أسألك الهدى، رباه ما ضل الفؤاد وما غوى. هل ما أعاني ملاك من جنابك مرسل أم هو الشيطان تزى بالهدى.

ولكنني قررت والقرار عبادة أن أترك الأوهام خلفي وأمضي إليك ربي ولن أحمل هم الوهم سيمضي وحده وبي لن يتوحد.
قد كانت بساتين خضراء من حلم فاتن تزهر كل ألوان الجمال المخصب. سأعود الآن وأترك تلك الأرض وماءها وغيومها المثقلة بأصناف المفاتن الى صحراء كنت أقيم بها. فارغة إلا من رملة كأنها للتو غادرت تنورها.
سأعود للصحراء لترابها والتلال بلا قلب، بلا روح، بلا وجدان، لكني لن أترك حنيني هناك سأحمله معي.
***

عباد الرحمن

«وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما..... من آية 36 حتى الآية 47.
هذه الآيات وردت في سورة الفرقان، والفرقان هو ما يفرق به بين الحق والباطل، بين الحلال والحرام، بين الصواب والخطأ، بين الخير والشر.
والفرقان هو وصايا الرب وقيم الأخلاق والصراط المستقيم. وهو ذاته الحكمة التي أوتيها لقمان، وهو الحكم الصائب والقول الصائب والفعل الصائب.

فعباد الرحمان هم من نسبوا إلى ثاني اسم من أسماء الله الحسنى، وهي من الأسماء التي لا تطلق لا كإسم ولا كصفة لغير الله تعالى، وهم عباد للرحمان لأنهم قد عرفوا الله حقاً فطبقوا وصاياه وساروا على صراطه المستقيم فكانوا حكماء.

عرفوا أنه سبحانه له تمام الهيمنة والسيطرة والجبروت والرحمة العامة الشاملة والمطلقة، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، فاستحقوا هذا اللقب.

ومن صفات عباد الرحمان أنهم الأحرار حقاً. هم ليسوا عبيداً مجبرين على الطاعة، بل هم من اختاروا النسبة إلى الرحمان لمعرفتهم به سبحانه فحرروا أنفسهم من مطلق العبودية، وتسيدوا العقلاء. وهم أسياد أنفسهم هم من يعيشون الوقار والسكينة، حلماء متواضعين غير مختالين، يتصفون بحسن السمت والخلق القويم، لا يفسدون في الأرض ولا يمشون لمعصية وإن جهل عليهم لم يجهلوا. يقيمون الليل، وأقله ركعتين بعد صلاة العشاء. يتعوذون من عذاب جهنم. يعتدلون في الأمور كلها. لا يذلون أنفسهم بالمعاصي. فهم من يلتزمون صراط الله المستقيم، وهم بهذا حكماء وصدق فيهم قوله تعالى «و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا».

ومن رحمة الله بعباده أنه يشملهم بعفوه إن أخطأوا فيتوب عليهم. وهذا من تمام رحمته بهم.